100 ساعة على الحدود

وقائع المأساة السورية من المنفى

علاء البدري

ليليت للنشر
والتوزيع

١٠٠ ساعة على الحدود

وقائع المأساة السورية من المنفي

مدقق لغوي أ. محمد فهمي

رقم إيداع ١٣٥٠٦ / ٢٠١٥ط١

الترقيم الدولى / ٣- ٠١٦ - ٧٨٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨

ليليت للنشر والتوزيع

الإشراف العام / إيمان سعيد

01022661632 - 012242723

lilettepublishing@gmail.com

www.lilithbook.com

جميـع الحقـوق محفوظـة للنـاشر وأي اقتبـاس أو إعـادة طبـع أو نـشر في أي صـورة كانـت ورقيـة أو إليكترونيـة أو في وسـيلة سـمعية أو بصريـة دون موافقـة كتابيـة مـن النـاشر، يعـرض صاحبـه للمسـاءلة القانونيـة .

إهداء

إلى التي سرتني دومًا بتألقها وتوهجها ..

إلى روح أمي التي مُدت جذورها في حناياي

وزُرعت داخلي

وإلي أبي الذي وهبني عطاياه بلا حدود

وإلى ورداتي الثلاث: رويدا وهنا وملك.

فاتحة القول

«الاستبداد أعظم بلاء؛ لأنَّه وباء دائم بالفتن، وجَذْبٌ مستمرٌّ بتعطيل الأعمال، وحريقٌ متواصلٌ بالسَّلب والغصْب، وسيْلٌ جارفٌ للعمران، وخوفٌ يقطع القلوب، وظلامٌ يعمي الأبصار».

عبد الرحمن الكواكبي
«طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»
(٥٥٨١ - ٢٠٩١ ميلادية)

الرحلة

بدأت الرحلة الشائكة إلى الحدود السورية الأردنية التي ظننت كثيرًا في بدايتها أنها مجرد مهمة عمل سأقوم بها بتغطية صحفية عادية مثل عملي الاعتيادي الذي آلفه عن ظهر قلب وبكل ما يحتويه حتى من المفاجآت والأحداث غير السارة، بمظاهر لافتة من الحفاوة والرفاهية ، الأمر الذي أقلقني؛ لأنني لن أجد ما يعينني على تنفيذ ما كنت أخطط له من إعداد ونشر موضوعات صحفية مغايرة عن تلك التي كنت أقدمها لصحيفة «الخليج» الإماراتية التي كنت أعمل بها حينها، وهي الموضوعات التي كنت أصفها بأنها بلا بهارات.

توجهت في الصباح الباكر يوم الاثنين الموافق ٨١ أغسطس ٢١٠٢ إلى مطار العاصمة أبوظبي، فوجدت مسؤولًا بالهلال الأحمر الإماراتي المنظم للرحلة ينتظرني بشغف واستقبال حار بالمطار، وأنهيت إجراءات سفري وأنا أتناول التمر الفاخر بين رشفات القهوة العربية العتيقة بقاعة فاخرة من قاعات كبار الزوار، لتقلني الطائرة الفاخرة أيضًا بمقاعدها الوثيرة أنا ورفقاء الرحلة من الصحفيين ومذيعي بعض القنوات التليفزيونية إلى مقصدنا وهدفنا.

وخلال رحلة الذهاب ونحن نحلق بين السحاب اتفقنا على التعاون في إعداد الرسالة الصحفية التي سنرسلها لصحفنا كل يوم، واتفقنا أيضًا على الأهم، وهو تنظيم برنامج ترفيهي ننفذه كل ليلة، وعزمنا عزمًا أكيدًا على استغلال أكبر وقت ممكن من الرحلة في قضاء وقت ممتع، مستغلين فرصة وجودنا بعيدًا عن أجواء العمل الصحفي الروتيني المرهق.

وعندما هبطت طائرتنا الإماراتية على أرض مطار العاصمة عمان، وجدنا فريقًا من الخارجية الأردنية ينتظرنا بترحاب

شديد، وجلسنا بصخب حوارنا الصحفي المعتاد في قاعة كبار الزوار.. حتى انتهت إجراءات دخولنا الأردن التي لم تأخذ إلا دقائق، بعدها نقلتنا سيارات مرسيدس فارهة إلى الفندق الشهير بقلب العاصمة، كان ذلك قبل العصر بقليل.. واستكمالًا لمظاهر الاستقبال والحفاوة البالغة، وجدت نفسي أمام جميلات حسناوات يقدمن لنا كل التسهيلات والتيسيرات الممكنة؛ الأمر الذي زادني قلقًا من أنني فعلًا لن أحقق أمنيتي في إعداد موضوعات صحفية تحدث قدرًا من الرضى لي في تاريخي المهني، واستسلمت للواقع الماثل أمامي .. وقلت «خلاص خليني أنبسط بلا صحافة بلا وجع قلب».

جلست أمام إحدى الجميلات وهي تنهي إجراءات إقامتي بالفندق، وشغلني مظهرها البراق وابتسامتها الحلوة، ولكنتها الأردنية المرحبة التي زادتها ودًا عندما عرفت بمهنتي الصحفية كأنني كائن ملائكي هبط عليها من السماء، وتحدثت كثيرًا دون أن أنصت أو ألتفت لكلماتها، فكيف ألتفت لحوار تنطق به شفاه وردية بطعم الرفاهية التي تحيط بي من كل صوب!

وأحبطني الرجل الصارم الذي أخذ حقيبتي من يدي عنوة وحملها بخطوات مسرعة نحو المصعد، وهو يشير لي بأن أتبعه، وتركني هناك وحيدًا وبرفقتي كل وسائل الترفيه في الجناح الملكي، حينها مات لدي كل أمل في مهمتي الصحفية المبتغاة.. وضحكت بصوت عالٍ مستسلمًا.

حينها سمعت صوت الهاتف الجاثم فوق مكتب كلاسيكي صغير يصرخ مناديًا، أسرعت نحوه ملبيًا النداء المباغت لأسمع صوت زميلي المصور الهمام يوسف الأمير يطلب مني النزول لتناول الغداء، أسرعت بتغيير ملابسي متوجهًا إلى بهو الفندق على أمل لقاء فتاتي المتيمة بمهنتي.

وهناك انتظرنا باقي الزملاء حتى حضر الجميع، كان تجمعنا لافتًا لكل زوار ومقيمي الفندق، وتسارعت وتيرة وحدة الحوارات المتبادلة بيننا، التي دارت كلها حول الاقتراحات الجيدة والممكنة لاستغلال أيام الرحلة والاستمتاع بها، واتفقنا على أفكار طموحة نستكمل بها ما نعيشه من رفاهية هي عمر رحلتنا الصحفية.

وتوجهنا لغزوة الغداء الذي تناولناه بنهم شديد فضح جوعنا اللافت، ونحن جالسون على موائد متلاصقة قريبة، ونحن نستكمل حواراتنا عن كيفية قضاء رحلتنا، وقبل أن ننتهي من غدائنا، أخبرنا أحد أصدقائنا من فريق الهلال الأحمر الإماراتي أننا مدعوون على عشاء بمنزل السفير الإماراتي في الأردن، بحضور شخصية إماراتية محببة للجميع، دون أن يخبرنا من هي!

في الحقيقة لم نهتم كثيرًا بمعرفة تفاصيل دعوة العشاء، ولا من هي تلك الشخصية المحببة، فقط شغلنا أن خطتنا لتفقد شوارع العاصمة عمان هذا المساء قد باءت بالفشل، فها نحن نرتبط بلقاء بروتوكولي رسمي، ظنناه مملًّا عاديًّا مثل تلك اللقاءات الكثيرة التي تعودنا عليها بحكم عملنا الصحفي.

أسرعت بعد تناول الغداء إلى جناحي الفندقي الفاخر لأنال قسطًا من النوم، ونمت وقتها كثيرًا من شدة التعب والإرهاق، وصحوت لأرتدي ملابسي حسب الموعد المحدد لتجمع الرفقاء، الذين أخذوا يعلنون عن قلقهم من ضياع

الرحلة في لقاءات مملة بلا داعٍ، وتدخلت لأخبر الجميع بأنه لا داعي للقلق، فما زال أمامنا وقت طويل وساعات أطول للاستمتاع بالرحلة.

وجاءت الحافلة التي ستقلنا إلى اللقاء الموعود، وصعدنا الأتوبيس الصغير، وجلسنا نتحدث في حوارات متداخلة لم تنقطع، ونحن نشاهد باهتمام معالم وشوارع العاصمة عمان، وسط تعليقات ساخطة على الليلة التي ستضيع في لقاء روتيني.

وفي منطقة راقية بإحدى ضواحي عمَّان، توقفت السيارة بجوار فيلا منمقة من الخارج، تحيط بها الأنوار الخافتة وتزينها الأشجار التي تحيط بكل المباني في الحي الأرستقراطي الشهير لتستقبلنا مظاهر أكثر حفاوة وكرمًا.

وعندما نزلنا من السيارة، وجدنا السفير الإماراتي الدكتور عبد الله ناصر العامري في مقدمة مستقبلينا بابتسامة وترحاب شديدين، وجلسنا جميعًا في المجلس الرحب ونحن نحتسي القهوة العربية التي تختلف نكهتها باختلاف الأمكنة

والأزمنة التي تُحتسى خلالها، وأظن كثيرًا أن طباع ومزاج مقدمها تؤثر بلا ريب في مذاقها.

وبين رشفات القهوة والحوار الممتع الدائر بيننا وبين السفير الإماراتي حول الأوضاع الملتهبة والصراعات التي تشهدها منطقتنا العربية، والتحديات التي تواجه مخططات وبرامج تقديم الدعم اللازم للاجئين السوريين العالقين في المنطقة الحدودية مع الأردن، طلت المفاجأة السعيدة، الفنان الإماراتي حسين الجسمي يخترق مجلسنا بأدب وبابتسامته المعهودة.

صفقنا حينها من فرط سعادتنا بالمفاجأة الجميلة، وتبادلنا جميعًا النظرات مبتسمين فرحين باللقاء الذي كنا قلقين بشأنه وغير مرحبين به باعتباره مضيعة للوقت ليس إلا؛ لتتحول مشاعرنا القلقة إلى حالة من الرضى والقبول اللافت.

قلت لزميلي الجالس بجواري: ما أروع الليلة! حظينا بحوار سياسي رائع، وتقابلنا مع الفنان المحبوب حسين

الجسـمي، متسـائلًا بابتسـام: هـل كنـا سـنحظى بمثـل هـذا الـرضى إذا تجولنـا في الشـوارع والميـادين كما كنـا نخطـط! .. وأجابـني بإيمـاءة أعلنتهـا ابتسـامته الفرحـة.

تحدثـت في هـذه الليـلة كثيرًا مع الفنـان حسين الجسـمي، الـذي أبـدى كثيرًا حبـه الشـديد لمصر وهـو يتحـدث اللهجـة المصريـة كأنـه أحـد أهلهـا، واسـتجاب لرغبتنـا في أن نسـمعه يغـني.. وغـنى بطـرب .. وتغولنـا في فـرط الـرضى والسـعادة .. والتهمنـا عشـاءنا بنفـس جائعـة سـعيدة.

وانتهـت الليـلة الجميـلة بـكل مـا احتوتـه مـن مظاهـر الترحـاب والحفـاوة بـوداع السـفير الإمـاراتي لنـا مبـديًا سـعادته بلقائنـا وحـواره معنـا، مؤكـدًا أن رجـال الصحافـة بنيـان هـام في كل المجتمعـات الـتي تنشـد التحـضر والتطـور.

واتفقنـا عـلى لقـاء في الصبـاح الباكـر سيذهب إليـه الجميع، أنا والزمـلاء وفريـق الهـلال الأحمـر الإمـاراتي برفقـة السـفير الإمـاراتي، والفنـان حسـين الجسـمي، وانطلقـت حافلتنـا متوجهـة مـرة أخـرى إلى الفنـدق، ولم تنقطـع حواراتنـا وكلماتنـا المثنيـة عمـا حـدث في ليلتنـا الـتي تغـير حالهـا بعـد أن كانـت

تبعث فينا منذ ساعات قليلة الكثير من عدم القبول.

توجهنا سريعًا إلى غرفنا راغبين في الحصول على قسط وافر من النوم بعد إرهاق طويل، دخلت غرفتي وألقيت بنفسي مجبرًا على السرير ونمت، لم أعرف متى تسلل إليَّ النوم ولا متى استغرقني، وصحوت مبكرًا على رنين منبه الهاتف، ارتديت ملابسي سريعًا، وحملت حقيبتي الصغيرة والأوراق ونظارتي الشمسية، ونزلت مسرعًا لتناول الإفطار.

وجدت أغلب الزملاء في قاعة الطعام بالفندق يلتهمون إفطارهم على عجل، واقتحمت معركة الفطور مشاركًا وبين الأصناف الكثيرة والمداخلات الحوارية حول ما حدث ليلة أمس ضاعت لذة الإفطار عندما تذكرت رفيقتي « كبسولة » ضغطي العالي لأعود مرة أخرى لغرفتي.

توجهت مباشرة خارج الفندق، فقد كانت السيارة تنتظرنا لننطلق نحو مقصدنا، محافظة المفرق الواقعة على الحدود مع سوريا، ركبت الحافلة، وحييت السائق الذي بدا ودودًا للغاية، وانطلقت حواراتنا التي لا تنتهي قبل تحرك السيارة.

كان الطريق طويلًا بصورة غير متوقعة بالنسبة لنا، حرصت على الجلوس بمفردي حتى أتمكن من فحص ملامح الطريق والأماكن والقرى التي سنمر بها، وتصوير ما يشد انتباهي، كان الطريق بعد أن خرجنا من حدود العاصمة مقفرًا، صحراويًّا على جانبيه إلا من بعض التجمعات البدوية الفقيرة التي ترعى الغنم وتعيش في خيام تنقل من حين لآخر.

وجدت لافتة كبيرة على جانب الطريق تشير إلى أننا على مقربة من محافظة المفرق الملاصقة للحدود مع سوريا، طلبت من السائق سريعًا أن يبطئ من سرعته كي أتمكن من تصويرها؛ مما أثار حفيظة بعض الزملاء الذين أخذوا يسخرون من تصرفي بدعابة؛ لأرد أنا بقولي صارخًا: « إنها المهنية أيها الساخرون «.

كنت أحاول أن أجد موطأ قدم ومساحة حتى أجد فرصة تمكنني من إعداد موضوع صحفي ذي قيمة، حتى وإن ندرت الفرص لتحقيق هدفي، وعزمت على تنفيذ نظريتي الفلسفية في الحياة « فن الممكن « مستغلًّا كل المتاح كي

أصنع منه بعض ما آمل.

وبين دردشات وكلمات الزملاء، أثيرت الخلافات بشأن ما حدث ويحدث في بلدان الوطن العربي على امتداده الشاسع، وما أطلق عليه زيفًا وخطأً بـ « الربيع العربي »، لتظهر في حينها وفي مفارقة غريبة لافتة عريضة في طريقنا مكتوب عليها « محطة الربيع العربي لغسيل وتشحيم السيارات « لتهبط علينا موجة عاتية من الضحك والسخرية والهذيان.

وتبارى كلٌّ في تفسير ما يهدف إليه صاحب الورشة من هذا الاسم، وأجمعنا على أن الرجل ربما يريد الاستهزاء بحركات التحرر والثورات العربية، أو أنه يريد أن يقول بأن هذه الثورات تحتاج لتعديل وصياغة وترتيب حقيقي لقيادتها، وهو الأمر الذي يتضح في كلمتي « غسيل « و» تشحيم « وهما الآليتان المهمتان لقيادة أي سيارة، ورغم إجماعنا أو اختلافنا، فقد طرح الرجل المسألة الوجيهة والضرورة الهامة وهي متطلبات القيادة بنجاح.

وبعد مرور أكثر من ثلاث ساعات في الطريق نحو المبتغى البعيد، لم تنقطع فيها التفسيرات والتحليلات والحوارات التي خففت عنا طول الرحلة، وصلنا إلى المدينة البعيدة « المفرق « وبعد أن تجاوزنا بيوتها البسيطة بأمتار قليلة انحرفت سيارتنا قليلًا، وسارت ببطء حتى توقفت تمامًا.

وسرنا برفقة أعضاء فريق الهلال الأحمر الإماراتي في طريق ضيق لننحرف يسارًا لنجد أنفسنا أمام المستشفى الميداني الأردني الإماراتي، وجدناه خلية عمل، بعض شباب الهلال الأحمر يرتب عمليات وإجراءات توزيع المواد الإغاثية، والآخر يتلقى طلبات مساعدة، وآخرين يعملون في تقديم التيسيرات لدخول المرضى وذويهم من اللاجئين السوريين.

انشغلنا في الحصول على تصاريح صحفية من كبار مسؤولي الهلال الأحمر الأردني والإماراتي، ومعهما ممثلو مفوضية شؤون اللاجئين، وبعد أن انتهيت من العمل الروتيني الصحفي، انزويت جانبًا، وأخذت أتطلع نحو المشهد غير المتوقع، فرق تعمل بكد وعزيمة للمساعدة، وأناس تقطعت

بهم السبل، ارتسمت على وجوههم مآسٍ رأيتها شاخصة بقوة.

وهنا أدركت أن رفاهية الرحلة لن تطغى على كل أوقاتها، وأن توقعاتنا قد ذهبت أدراج الرياح ، وتيقنت بالضرورة أنني لن أحتاج إلى إعمال أو تنفيذ نظريتي الخالدة «فن الممكن» فقد لاحت في الأفق مشاهد تنبئ عن قادم سيفرض نفسه بقوة على من يشاهده، واقع تحتم علي مهمتي الصحفية أن أوثق ملامحه وأحداثه، وأدونه باهتمام.

وبعد رحلة العودة من المنطقة الحدودية إلى مكان إقامتنا في العاصمة عمان في هذا اليوم وباقي أيام رحلتنا الصحفية التي استمرت لأربعة أيام، تبدل شأنها تمامًا، ولم يعد في وسعنا ولا مقدرتنا النفسية أن ننفذ أي برامج ترفيه؛ فها هي مشاهد وروايات البؤس والإحباط تسيطر على كل الأجواء؛ لنكتفي بالبرنامج الروتيني الذي وضعه مسؤولو الرحلة.

أما أنا، فقد وجدت نفسي أمام عوالم أخرى غير تلك التي ظننت أنني ربما قد أراها.. شاهدت حالات إنسانية

أفزعتـني وآلمتـني كثـيرًا، وسمعـت روايات إنسـانية مفجعـة أحدثـت بداخـلي شرخًـا عظيمًـا، أظـن أنـه سـيظل شـاخصًا في كيـاني طالمـا صـدى صـوت هـؤلاء الضحـايا مـا زال عالقًـا في ذاكـرتي وهي تروي قصـص معاناتهـا مـن القصـف والقتـل والدمـار الوحـشي.

علاء البدري

دبي - أبريل ٥١٠٢

وكانت البداية

لاجئـون، أو نازحـون، أو تاركـون لأوطانهـم قـسرًا وهـربًا مـن أعمـال القتـل والتعذيـب والدمـار في سـوريا، كلهـا مسـميات وصفـات يُشـار إليهـا في تقـارير وأخبـار الصحـف ووكالات الأنبـاء العالميـة والمحطات الفضائيـة عـلى أنهـا مجـرد أرقـام، رغم كونهـم في الحقيقـة ضحـايا لكارثـة لا توصـف إلا بكونهـا وصمـة عـار سـوف تُسـجل في تاريخ الإنسـانية الـتي تتغـنى ليـل نهـار بحضارتهـا وتطورهـا.

مـا أصعـب أن تُجـبر عـلى ترك البيـت الـذي ولـدت وتربيـت فيـه! .. مـا أصعـب أن ترى حوائطـه وأحلامـك الـتي زرعتهـا ببراءة الطفـولة وهمـة الرجـال بـين جدرانـه تنهـار أمامـك وأنـت بـلا إرادة! فقـط تجـد نفسـك مجـرد ضحيـة لا حـول لـك ولا قـوة.

ما أصعب أن تجد أحدًا من أهلك أو ذويك أو قريبًا لك، أو جارًا، أو حتى إنسانًا لا تعرفه ملقى على قارعة الطريق جثة هامدة، وأن تجده ينزف وهو يصارع الموت ولا تستطيع إنقاذه أو حتى تقديم أي مساعدة له! لأنك ببساطة ستنال مصيره نفسه برصاص قناص لا يعرف الحق ولا العدل ولا الإنصاف، ولا حتى ماذا تعني الإنسانية.

كارثة إنسانية أن يُهجَّر الأطفال بدون إرادة منهم أو من ذويهم؛ ليصبحوا بعد رحلة الهروب الصعبة مجرد أرقام في إحصاءات المنظمات الدولية كنازحين، ما الذنب الذي اقترفوه ليشاهدوا جثث أقاربهم مشوهة وملقاة في كل مكان! ما ذنبهم حتى يجدوا أنفسهم فجأة بلا مأوى! فقط خيام تم تشييدها على أرض صحراوية قاحلة تسكنها الأفاعي والعقارب والحشرات.

بأي حق يعيش هؤلاء الصغار هم وأسرهم في العراء الموحش بلا أي حقوق، وهم يحملون في صدورهم خوفًا قاتلًا على ذويهم العالقين هناك في الوطن، وكرهًا للعالم أجمع الذي ترك ضميره خارج قاعات الاجتماعات المغلقة، وتركهم

يُقتلون ويُعذبون من دون اكتراث، فبأي حق يُهجرون؟! وبأي حق يقتلون؟! وبأي حق يقال عنهم أطفال لاجئون؟!

فاطمة ودارين وسارة وآمنة وعمار وإلهام ومرام وعلي، وغيرهم كثيرون، أمثلة حية وحكايات مؤلمة، ومآسٍ مفجعة لأطفال في عمر الزهور، نزحت عائلاتهم السورية إلى منطقة المفرق الأردنية الحدودية مع سوريا، هربًا من أعمال القتل والهدم والتعذيب التي يمارسها النظام السوري تجاه شعبه دون تفرقة بين الشيوخ والنساء والأطفال . .

وغيرهم كثيرون، التقيتهم خلال مهمتي الصحفية إلى منطقة المفرق الحدودية، التي استمرت حوالي مائة ساعة قضيتها منصتًا لروايات وقصص درامية، أبطالها أقل ما يقال عنهم إنهم ضحايا لجنون بشري، وإبادة إنسانية يمارسها نظام وفرق وجماعات لا تعرف غير الدم والتوحش.

فاطمة

فاطمة .. هذا هو اسمها الذي لا أستطيع أن أنساه رغم مرور عامين منذ أن التقيتها هناك، في هذه المنطقة الحدودية النائية الموحشة التي تسكنها العقارب والثعابين، نبتت فيها أعشاب بين حجارة وصخور مائها القسوة والظمأ الذي لا ينحسر إلا في فصل الشتاء القارس.

وجدتها وهي عالقة مشردة على الحدود الأردنية السورية كلاجئة بلا مأوى بسبب دنس الكبار وشرور المؤامرات والسياسة التي أجبرتها أن تسكن خيمة بالية بلا وتد ولم تجد غير العراء تلتحف به.

أوجعتني كلماتها وهي تسرد لي قصة هروبها من القتل والقصف والتشرد والضياع.. تاركة وراءها أمها وأخوتها وجثة أبيها الذي قتل غدرًا تحت أنقاض منزلهم العتيق

دون أن تعـرف مقـبرة باسمـه سـيدفن بهـا، ولا أي مصـير ينتظـر أمهـا وأشـقاءها الثلاثـة نادر ومحمـود وعـلي، الـذين حملوا السـلاح مثـل الكثـير مـن الشـباب هنـاك رغم سـنهم الصغـير دفاعـًا عـن قضيـة وطـن أصبـح بمـرور الوقـت مـكانًا وملتـقى لـصراع قـوى الـشر في العـالم.

إنهـا فاطمـة، صاحبـة الكلمـات المؤلمـة .. فاطمـة الفتـاة الصغـيرة الـتي أثارت انتبـاهي عندمـا اقتربـت مـن الخيـام الـتي تم تشـييدها في أجـواء قاحـلة بـلا خدمـات أو مرافـق، وجدتهـا تنظـر إلى الشـاحنة التي تحمـل المسـاعدات الغذائيـة والدوائيـة بـلا اكـتراث، ولم تفعـل مثلمـا فعلـت باقي قريناتهـا مـن الفتيـات المهجـرات اللاجئـات سـاكنات الخيـام الـلاتي أسرعـن للحصـول عـلى كيـس أرز أو دقيـق، أو بعـض الملابـس أو الأغطيـة.

لم تكـترث أبـدًا بمـا تحمـله الشـاحنة مـن مـؤن ضروريـة وهامـة؛ فالأمـر كلـه لا يعنيهـا ولا يهمهـا .. فكيـف تهـتم وهي روح مقتـولة مذبوحـة دون أي مـبرر ولا منطـق ولا عقـل يفهـم مـا حـدث لهـا ولأسرتهـا!

وجدت في وجه فاطمة ملامح امرأة كبيرة عابسة بلا روح ولا أمل، لكنها فاجأتني بقولها إن عمرها لم يتعدَّ السبعة عشر عامًا، لم أصدق حينها إلا بعد أن تمعنت كثيرًا في وجهها واكتشفت صدق كلامها، فتاة صغيرة شقراء بملامح ذهبية بلون الشمس، عيناها واسعتان، مليئتان ألمًا ووجعًا رغم أنهما يستحقان كل الحياة وكل الأمل.

أجبرت فاطمة على الرحيل تاركة وراءها كل شيء، حتى جثة أبيها الذي مات تحت حوائط بيتهم الكبير والعتيق، بعد أن تهدم فجأة بسبب صاروخ قذفته إحدى الطائرات التي تجوب سماء منطقتهم ليل نهار، ودون أن يتمكن أحد من أفراد أسرتها إنقاذه أو حتى منحه حق أن يوارى جثمانه الثرى.

لم يستطيعوا ذلك إلا بعدها بأيام، وفي ليلة مظلمة خوفًا من القصف الأرعن الذي لا ينقطع، وأخبروها بعدها أنهم تمكنوا من استخراج جثته ودفنه في مقبرة جماعية أعدوها خلسة في حديقة حارتهم ضمت جثثًا لضحايا كُثر قُتلوا تحت وابل النيران والقنابل .

روت تفاصيل مقتل أبيها، كانت كلماتها البسيطة القصيرة تقطر حزنًا ووجعًا، وحملت نظرات عينيها كل آلام الدنيا، وقهر الظلم الذي لا يعرف إلا الضعفاء كي ينزل عليهم عقابه دون ذنب اقترفوه، أو جريرة ارتكبوها.

.. قُتل أبي، الرجل المسالم الطيب القوي، سند العائلة كلها، وترملت أمي وتيتمت أنا وإخوتي، لا أستطيع نسيان مشهد موته ولا صراخ أمي، خرجنا كلنا من البيت بعد أن حذرنا الجيران من القصف وبراميل البارود ، وأننا جميعًا نحن سكان الحي يجب أن نغادر لمنطقة أخرى أكثر أمنًا، وغادرنا كثيرًا وكثيرًا دون أن نجد أمانًا.

وتأخر أبي داخل البيت كثيرًا كثيرًا ولم يعد حتى الآن، وذهب أشقائي حاملين السلاح بحثًا عن قاتله المجرم الخسيس، وظلت أمي هناك وسط القصف، وجئت أنا إلى هنا وحيدة بعد أن ضاع شمل الأسرة.

قالت إنها تركت أمها وأشقاءها في قريتهم بدرعا، وانضمت إلى خالتها رغمًا عنها بعد أن صممت أمها بشدة

وهي تبكي عويلًا وصراخًا أن تغادر الحي والمنطقة وسوريا كلها؛ خوفًا عليها من همجية الشبيحة الذين يستبيحون أعراض النساء حتى أجساد الفتيات الصغيرات.

.. وخرجت في رحلة الهروب الطويلة التي استغرقت -على حد قولها- ٥١ يومًا رغم قرب المسافة بين المنطقتين الحدوديتين التي تستغرق في الظروف العادية ساعات قليلة، فبين كل متر يسيرونه يختبئون في الجحور وبين الحجارة والصخور النابتة على المنطقة الحدودية بين سوريا والأردن هربًا من القصف ومطاردات أشباح من البشر.

فاطمة لا تفهم الأسباب التي أجبرتها على الهروب من بيتها وقريتها، وأن تترك أسرتها، أكدت في روايتها وهي تنظر إلى خيمتها والصخور النابتة في كل مكان أن عائلتها كانت تمتلك بيتًا كبيرًا في درعا، به غرف كبيرة وكثيرة، ومكان خاص للطبخ، وحمامان كبيران، وحديقة كبيرة كانت تلعب فيها عندما كانت صغيرة.

وأجبرهم تهدم البيت، والأحداث الدامية المتلاحقة على ترك كل شيء هربًا من طلقات الرصاص والمدافع وأعمال القتل، ليتنقلوا جميعًا وفي كل يوم من منطقة لأخرى بحثًا عن الأمن الذي سرعان ما يغيب.

روت كلماتها هذه وهي تنظر إليَّ وإلى المكان المحيط بها، الأرض القاحلة والصخور والأعشاب الصحراوية التي تعودت على الظمأ وانعدام المياه التي لا تأتي إلا نادرًا، لتفاجئني بقولها: الآن أنا وأقاربي نعيش في هذه الخيام بلا صنبور، ولا مكان لقضاء الحاجة يسترني أنا وباقي الفتيات، ولا حجرة أغلقها عليّ وأنا نائمة.

وأخيرًا .. قالت لي قبل أن تتركني متجهة نحو طفلة صغيرة تبكي بشدة دون أن تكترث بالدمية غالية الثمن التي بين يديه المتسختين والتي حصلت عليها للتو من قافلة المساعدات، كيف ستساعدون أمي وأشقائي في مصيبتهم هناك؟

ألقت سؤالها الملح وهي تشير بيديها إلى منطقة الأسلاك

الشائكة الشاخصة أمامنا، ثم أشارت مجددًا بكلتا يديها إلى ما بعد الحدود داخل الأراضي السورية، وزادتها بسؤال موجع: هل ستجدون لأبي مقبرة تحمل اسمه .. سعدون علي عبد الرحمن؟!

أبو عبيدة

لقد تهدم البيت الذي بنيته بدمي وأفنيت فيه عمري، وقُتل الأعزاء والأصدقاء بدم بارد، وتشرد الأطفال، وترملت نساء عائلتي بلا مبرر أو ذنب .. حدث ذلك ذات ليلة دون أن نتمكن من الدفاع عن أنفسنا، جاءنا الغدر خلسة وفي أحقر صوره لنتجرع مجبرين مرارة الفقد والضياع ..

واجهنا الموت مرات ومرات بعد أن أجبرتنا يد البطش والقتل والانتقام على الهرب.. كانت هذه كلمات « أبو عبيدة « وهو يروي حكايته المفجعة.

كان ذلك ذات صباح خلال رحلتي اليومية إلى منطقة « المفرق « البعيدة عن العمران والقريبة إلى حد كبير من الخط الحدودي الأردني السوري، وفي مكان ناءٍ وصحراوي

على أطراف مدينة الحزن والألم والوجع التي نزح إليها خلال الفترة الأخيرة آلاف من اللاجئين السوريين.

رأيتهم في المشهد اليومي المتكرر في حالة يُرثى لها، لا يتوفر لهم أي من أساسيات الحياة، لا حوائط ولا أسقف، فقط يفترشون العراء داخل خيامهم الخمس البسيطة، التي لم يجدوا غير قماشها البالي ليحميهم من حرارة الشمس بالنهار وبرد الليل، الذي بدأ يشعر به سكان المنطقة .

من بعيد لا يظن الناظر إلى المكان أن المكان يصلح للعيش أو السكن، فالمنطقة صحراوية بلا خدمات ولا مرافق، أرض جرداء فقط يحيط بها بعض البيوت البسيطة التي تسكنها العشائر بمنطقة المفرق، هذا ما ظنناه في البداية، لكن عندما اقتربت الحافلة الكبيرة التي تقلنا، أصابنا جميعًا الصمت المطبق فجأة، إلا مسؤول الهلال الأحمر، الذي أخبرنا بأننا وصلنا إلى المكان المنشود، وأننا يجب أن نهبط من سيارتنا الفارهة إلى المنطقة الموحشة .

قررت كعادتي حينها أن أتنقل بين الخيام التي لا يفصل

بينها إلا بضعة أمتار قليلة، كأن ساكنيها يودون ويرغبون في أن يأنسوا بعضهم البعض، محاولين تحدي وحدتهم وغربتهم، ومواجهة مأساتهم في ترك بيوتهم ووظائفهم وممتلكاتهم ، في رحلة من العذاب والخوف من المجهول لا يحملون فيها أي شيء.

.. وتقابلت ساعتها مع حزين الملامح والكلام الرجل المسن « أبو عبيدة « الذي حكى معاناته التي بدت لي في بدايتها كمثل باقي الحكايات التعسة التي سمعتها من أصحابها الهاربين إلى المنطقة الحدودية ، لكن نظرة الرجل وملامحه وهو يروي جعلته يستغرقني ولم يدع لي أي خيار غير الإنصات.

فكيف لا أنصت وأنا أمام حالة إنسانية كرهها بعض ممن ينتمون زيفًا إلى البشر، وأفقدوها أعز وأهم ما تتصف به الإنسانية وهي الحياة ، كائنات متسخة بالسواد واللامنطق.

وأطال « أبو عبيدة « في حديثه عندما أخبرته أني « مصري « من الإسكندرية فقد سبق وأن أقام في « أم الدنيا « بضعة شهور منذ سنوات بعيدة وهو في سن صغيرة عند

قريب له، داعيًا أن يحفظ الله مصر التي وصفها بأنها قبلة العروبة.

وصمم الرجل الحزين أن أدخل خيمته لنشرب الشاي سويًا، وقتها لم ألتفت لرفقاء الرحلة ولا الزمن المحدد لنا للبقاء في المخيم، ولم يهمني انتهاء موعد مغادرة السيارة للمنطقة النائية البعيدة، لم ألتفت ولم أهتم بكل ذلك.

استغرقتني كلمات « أبو عبيدة « وقصة هروبه هو وأسرته من أرض الجحيم سوريا، إلى مدينة الحزن والألم « المفرق «، وجلست بجواره مستمعًا بإنصات شديد، ولم أجد في عينيه وكلماته إلا الحسرة، الحسرة فقط التي تعكس ضياع كل شيء.

وبين رشفات الشاي المختلف مثل المكان والكلمات التي أسمعها، ورغم ملاعق السكر الثلاث التي سكبها « أبو عبيدة « في كوبي، إلا أنني لم أتذوق إلا مرارة. فكيف أذوق حلاوة السكر في حوار كله مرارة وتعب!

وصف رحلة هروبهم من الموت بالأعجوبة؛ حيث اضطر

إلى تهريب أسرته المكونة من ١٠ أفراد أغلبهم من الأطفال على ٤ مراحل، خوفًا من البطش والقتل والتنكيل الذي يمارسه الجيش السوري النظامي تجاه السوريين العزل، دون أي تفرقة بين الرجال والنساء والأطفال، الكل هدف للقتل والتصفية ليس في منطقته «حماة» وإنما في كل مكان في سوريا .

الكثيرون يموتون كل يوم، يُنكل بهم كل يوم، ولا أحد يحرك ساكنًا، أما وسائل الإعلام فلا تعلن الحقيقة، فالذي ينشر أو يذاع، أو الذي تبثه وكالات الأنباء العالمية هو مجرد رقم صغير لا يتناسب مع حقيقة ما يحدث .

ويستكمل «أبو عبيدة» حكايته وحكاية أسرته خلال رحلة الهروب قائلًا: إنه اضطر لتهريب ابنيه في البداية، ودفع مقابل ذلك ١٠٠ ألف ليرة سورية حتى لا يلحقهما الجيش السوري إلى قواته عنوة؛ لأنهما لو رفضا ذلك فسوف يُتهمان بالخيانة وهي تهمة عقوبتها القتل بالرصاص.

وأشار إلى المنطقة الحدودية بيده المتعبة الواهنة، وروى

: كانـت رحـلة الهـروب صعبـة وخطـرة جـدًّا؛ فقـد بقينـا معلقـين أنا وزوجـتي وابنتـاي وأحفـادي الصغـار عـلى الحـدود ٩ أيام كاملة؛ حيـث كنـا نسير أمتـارًا قليـلة، ونضطـر للتوقـف بالسـاعات هـربًا وخوفًـا مـن رصـاص قناصـة الحـدود الـذين ينتظـرون بشـغف أي هـارب مـن سـوريا لـيردوه قتيـلًا في الحـال، بالإضافـة إلى المدافـع الـتي تـسرع بقصـف أي سـيارة يـتم اكتشـافها وهي تحـاول النجـاة هـربًا نحـو الحـدود الأردنيـة.

يريـدون أن نبـقى في الداخـل الـذي تحـول إلى خـراب، وأصبحـت بيوتنـا مجـرد أطـلال تفـوح منهـا رائحـة المـوت؛ فلقـد تهـدم كل شيء، ولم تعـد هنـاك أي مظاهـر للحيـاة في شـوارعنا، فقـط بقـايا البيـوت المنهـارة والمنهوبـة، وسـتظل مشـاهد المأسـاة عالقـة في أذهاننـا.

يريـدون أن نظـل بـلا بيـوت أو حـتى مـأوى حـتى نمـوت تحـت قصفهـم ونـيران كرههـم لنـا، وإذا حاولنـا الهـرب يقتلوننـا أيضًـا دون تفرقـة بـين الرجـال الكبـار أو النسـاء، أو حـتى الأطفـال، الـكل مسـتهدف بـلا رحمـة.

وأكـد أن هنـاك أسرًا كثـيرة لم تتمكـن مـن الهـرب؛ لأنهـم لا يملكـون الأمـوال الكافيـة لدفعهـا رشـاوى للمسـيطرين عـلى الحـدود؛ وبالتـالي هم أهـداف محتمـلة لـكل أشـكال القتـل والحـرق والتدمـير .

وحـول أوضاعهـم المعيشـية في هـذا المـكان الموحـش قـال: إنهـم ٨٢ شخصًـا، رجـالًا ونسـاء وأطفـالًا، يعيشـون في ٥ خيـام بـلا أي خدمـات ولا مرافـق؛ حيـث قامـوا بنصـب الخيـام في أرض لمواطـن أردني قـرر مسـاعدتهم بمنحهـم أرضـه حـتى يعيشـوا فيهـا مؤقتًـا .

ونظـر بقلـق وخـوف شـديدين إلى خيامهـم الخمـس، وإلى الظـروف الصعبـة الـتي يواجهونهـا؛ فالعقـارب والثعابـين منتـشرة في المـكان بسـبب طبيعتـه الصحراويـة، خاصـة أن هنـاك عـددًا كبـيرًا مـن الأطفـال الـذين قـد يتعرضـون في أي وقـت للدغـة عقـرب أو ثعبـان.

لكنـه أفصـح أنـه رغم الحـالة الصعبـة الـتي يعيشـون فيهـا بـلا أي خدمـات ولا أساسيات الحيـاة، إلا أنهـا أفضـل بكثـير مـن

العيش في ذل ومهانة وبلا كرامة، وأنه يخطط لكي يجد فرصة عمل له ولأبنائه يستطيع من خلالها إيجاد مأوى أكثر أمنًا للنساء والأطفال، بالإضافة إلى إعانته على تحمل تكاليف الحياة.

وودعني «أبو عبيدة » بنبرة تعسة، وبنظرة عين كلها أسى بقوله: « بنبكي على حاضرنا لما بنتذكر شغلات الماضي .. شو كانت حلوة هديك الأيام!»

دارين

بعـد رحـلة طويـلة في يـوم آخـر مـن أيام مهمـتي الصحفيـة الحدوديـة إلى منطقـة المفـرق القابعـة عـلى مشـارف سـوريا، والـتي بـدأت مـن مـكان إقامـتي بالعاصمـة الأردنيـة عمـان، وامتـدت منـذ الصبـاح الباكـر وحـتى بعـد رحيـل الشـمس، زاحمتني خلالها الكثير من مشاعر الإحباط والأسى والرفض لأفعال كريهة يمارسها بعض الطغاة الكارهين للإنسانية ضد بشر كل ما حلموا به هو العيش بسلام.

وصلت إلى المنطقة البعيدة جدًّا بمحافظة المفرق، حيث وصلت الحافلة إلى أطراف قرية صغيرة تضم مجموعة صغيرة

مـن البيـوت الريفيـة المتخاصمـة مـع نفسهـا في صـورة تتسـق تمامًـا مـع المـكان المتخـاصم والمتباعـد عـن الكـون المحيـط، هنـاك وفي هـذا المشهـد التقيتهـا ..

التقيـت « دارين « التـي لم تـبرح ملامحهـا ونظرتهـا ذاكـرتي، لا أسـتطيع أنـسى كُحـل عينيهـا الفريـد الطـاغي الـذي أسرني بطبيعتـه وبراءتـه .. مـا زلـت أتذكـر ضحكاتهـا لي .. مـا زلـت أتذكـر كل شيء حـدث بيـني وبينهـا وسـط ضحـكات أهلهـا وزمـلائي .. مـا زلـت أتذكـر وأنا أسرد قصتهـا هي وعائلتهـا.

هنـاك .. وعندمـا وصلـت أنا والرفقـاء مـن فريـق الهـلال الأحمـر الإمـاراتي وبعـض الزمـلاء مـن الإعلاميـين تملكـني غضـب مـن نـوع آخـر .. غضـب جديـد لم آلفـه مـن قبـل .. شـعرت حينهـا أن مـؤشر ضغـطي العـالي قـد ارتفـع إلى مستويات قياسية، ولم أتذكـر أنـني تناولـت رفيقـتي الصباحيـة « حبـة الضغـط « التي تلازمـني منـذ ٣ سـنوات بعـد نصيحـة شـديدة اللهجـة أمـرني بهـا الأطبـاء للسـيطرة عـلى تداعيـات المـرض المـزعج الـذي يصيبـني جـراء الانفعـالات العصبيـة اليوميـة.

أخـذت أتطلع إلى المـكان بتمعـنٍ شـديد خلال جـولة قصيرة جـدًّا سيرًا عـلى الأقـدام بـدأت مـن آخـر نقطـة وصلـت إليهـا الحاويـة، لم أجـد شـيئًا عـلى امتـداد النظـر؛ مما أثار اسـتغرابي واندهـاشي أنا والرفقـاء، فقـط أخـذنا نتتبـع دليلنـا السـائر في المقدمـة دون هـوادة.

ووسـط أحجـار وأعشـاب جافـة في أرض، أظـن كثـيرًا أنهـا آخـر نقطـة في الكـون المترامي أمـامي، كنـت أخطـو بصعوبـة نحـو مجهـول لا مـلامح له عـلى مـرمى البـصر، وبعـد برهـة، أحسسـت فجـأة ودون أي مقدمـات بظهـور بعـض المـلامح للمـكان، والـتي اتضحـت عندمـا اقتربنـا أكـثر، لأجـد نفسي أمـام منخفـض ضيـق، وطلـت عينـاي عـلى مشهـد هـو أبشع مـا رأيـت.

وعـلى الحافـة ظهـر مـا لم أكـن أتوقـع رؤيتـه داخـل المنخفـض، المشهـد عبـارة عـن مجموعـة مـن كبـار السـن مـن رجـال ونسـاء ، وفتيـان وفتيـات صغـيرات وأطفـال، كلهـم يحـوم حولهـم الضيـاع، فـلا أمـل ولا غـد يقيهـم مـا يتكئـون عليـه مـن مجهـول، وبعـض مـن خيـام شُـيدت ببقـايا قمـاش

متهالك يشبه المكان الموحش والأرض القاحلة التي بنيت عليها.

وعندما وطأت أقدامنا المنخفض المنعزل عن العالم، تجمع حولنا كبار السن وفتيان صغار، ولم أجد في المشهد أيًّا من الشباب أو الرجال، حينها تحدثوا كثيرًا وهم يصفون حالهم وما تعرضوا له من قتل وتنكيل وهدم بيوتهم، وأخيرًا التهجير ورحلات الهروب الدرامية للغاية.

صبوا غضبهم الشديد على العالم المتقاعس بمواقفه المتخاذلة لقضيتهم، وتداخلت الكلمات والعبارات إلى مسامعي، ولم أعد أسمع الحوار المتداخل من الكل، وانسحبت بعينيَّ ودون أن أدري شيئاعن الحوار الدائر، وسيطر عليَّ المكان بملامحه المرهقة ومكوناته البشعة التي لا تتسق مع فكرة أن هنا يمكن أن يقيم بشر حالة من السخط الشديد.

سرت بضع خطوات بليدة، وأخذت أحصي عدد الخيام القليلة، هذه واحدة كبيرة، وهذه ثانية مدخلها المهترئ يتسع

لدخـول سـيارة كبـيرة، وتلـك ظننـت في البدايـة أنهـا لا يقـيم بها أحـد؛ فالجـدران الـتي تحـمي قاطنيها عبـارة عـن بقـايا القمـاش والكرتـون، وهــذه الرابعــة، وتلــك الخامســة الــتي شــيدت بعنايــة وكانــت أفضــل الخيــام حــالًا رغم جوانبهــا المتهالكــة، وقتهـا اسـتغرقت وقتًـا طويـلًا في حـصر الخيـام الخمـس، وفهـم وإدراك مـلامح المـكان ومـا يحيـط بـه مـن وحشـة تقبـض القلب.

لا أســتطيع أن أنــسى صنــدوق الميــاه المعدنيــة، والحمــام البعيــد الــذي شُــيد بقطــع القمــاش البــالي وورق الكرتــون وقطـع البلاسـتيك، وتلـك الأسـئلة التعسـة الـتي دقـت عـلى رأسي حينهـا، كيـف يقضـون حاجتهـم هنـا؟! وكيـف وكيـف؟! وألـف لمـاذا؟! دون إجابـة تشـفي غليـلي مـن المشهـد المـروع، ففضلـت الهـروب مـن أسـئلتي وحمـقي.

ابتعــدت قــدر الإمــكان مــن رفقــاء الرحــلة، وسرت نحــو الأســلاك الشــائكة الــتي تفصــل المنطقــة الحدوديــة، وجدتهــا بعيــدة رغم أنهــا شــاخصة أمــام عيــنيَّ كخيــال مآتــة يرهــب الناظــرين.

وحاولت أن أعبر بنظري إلى هناك، إلى القرى السورية الحدودية التي تشهد مزيدًا من التهجير بسبب ممارسات القتل والعنف، وحاولت أن أقترب قدر الإمكان من النقطة المسموح بها أمنيًّا، لم أحصد من قربي إلا واقعًا مريرًا بائسًا يكره الحياة.

وفي لحظة جنونية انتابتني فجأة؛ حيث تخيلت حالي أنا وأهلي إذا اضطررنا للعيش في هذا المكان، وأننا نقطن إحدى الخيام الخمس، فلا مكيفات تقينا الحر، ولا تلفاز أشاهد عبره برامج التوك شو والأفلام القديمة التي أحبها، ولا إنترنت أتواصل من خلاله مع الأصدقاء عبر «الفيس بوك» و»تويتر»، ولا تلك الأشياء الأخرى الكثيرة التي لا أستطيع العيش بدونها.

لم يطل تفكيري وتخيلي المجنون إلا بضع ثوانٍ لأعود مرة أخرى إلى واقع يحياه هؤلاء الأناس الذين لم يجدوا غير خيام بالية، ومكان موحش يحميهم بطش السياسة وظلمها.

قال الرجل العجوز « أبو محمد « إنهم مجموعة من الأسر السورية اضطرتهم الأعمال الوحشية والقصف العشوائي والجنوني لطائرات النظام على بيوتهم وأحيائهم للهروب من منطقتهم « درعا « التي تبتعد عن الحدود الأردنية مسافة ثلاثة كيلومترات، وعن العاصمة دمشق ٠٩ كيلومترًا، ومن هناك ظلوا يتنقلون هربًا من قرية لأخرى يلاحقهم الدمار والقنص والاعتقال قاصدين المفرق الأردنية.

واستكمل حديثه وهو ينظر إلى المكان الموحش، وأنهم استقروا في هذه المنطقة بعد رحلة هروب صعبة للغاية استمرت أيام عدة، واجهوا خلالها التضاريس الحدودية العصيِّة دون هوادة، ولم يمهلني فرصة لطرح أسئلتي، ليؤكد لي أن مكان إقامتهم هذا يمثل بالنسبة لهم أعظم الأماني، فهنا وجدوا الأمان، فلا خوف على النساء والبنات الصغيرات.

قال « أبو محمد « بصوت كله حزن وإحباط العالم أجمع : إن حالهم الآن أفضل بكثير مما كانوا يعانونه؛ فهم هنا لا يصحون على موت عزيز أو قريب، أو على تهدم بيت أو صراخ أم أو زوجة، وأن مستلزمات الحياة الضرورية

التي يفتقدونها هنا لا تمثل لهم كارثة مقارنة بكوارث الموت والقصف والاعتقال.

كنت أستمع حينها لكلمات» أبو محمد « باستغراب واندهاش شديدين؛ فالرجل لا يأبه ولا يهتم بالوضع والظروف الكارثية التي أراها بأم عيني تحيط بهم من كل مكان، فالمنخفض لم يسكنه بشر من قبل، أما مكان إقامتهم فهي خيام مهترئة من القماش البالي، في حين يراها هو قدرًا كبيرًا من الأمان.

وفجأة! .. قطع صراخ صغيرة صمت المكان، وأبعد بيني وبين تلك الأفكار المحبطة الكثيرة التي كانت تدق على رأسي وقتها بلا هوادة، ودون قرار مني، وجدتني أتوجه في خطوات مسرعة نحو الطفلة الصغيرة ذات العام وبضعة أشهر، وعندما اقتربت زاد صراخها أكثر خوفًا وقلقًا من الزائرين الكثر الذين اقتحموا خلوتها وخلوة المنخفض الموحش.

أحسست بضيق الدنيا كلها يهبط على صدري بسبب

صراخ الطفلة الذي صمت فجأة، عندما لاحت لها ملامحي وضحكتي وخوفي عليها، فقد شعرت بأنني فتنت بها، وعشقت عينيها والكحل الذي يزين نظرتها، وحدث التقاء نفسي بيني وبين « دارين « نعم. هذا هو اسمها.

لقد تحقق لي أنا والرفقاء وسكان المنخفض الموحش أن « دارين « قد أعجبت بي؛ فها هي تضحك لي أنا وحدي، لتتبدل مشاعر الضيق والإحباط التي كانت تسيطر على كل الوجوة، فكيف لأحد، أي أحد لا تتبدل نظرته المتجهمة وهو يشاهد ويسمع ضحكة طفلتنا الصغيرة.

حينها تعالت الضحكات والتعليقات حول العشق الذي حدث بيني وبين « دارين « فجأة، العشق الذي ارتفع مؤشرة عندما حملتها بين يدي، وضحكت أكثر وتآلفنا وضحكنا سويًا، واندهش الكل بسبب الشعور بالرضى الذي حدث بين الغريب القادم وبين الطفلة الصغيرة التي أرهبتها نظرات الغرباء.

فرحت كثيرًا بعشق دارين بي، هذا العشق الطفولي الذي

جعلها تستغرقني وتقتحم أفكاري ومشاعري المحبطة جراء ما أشاهده وما أسمعه من رويات وقصص مفجعة لأناس اضطرهم الحقد والكره الإنساني للهرب تاركين وراءهم كل شيء.

وسعدت باقتحام الصغيرة لي، وملامحها المختلفة المتفردة التي لا أستطيع أن أنساها، فها هي صورتها معي وأنا أحملها بين يدي التي ما زلت محتفظًا بها تذكرني بهذا الكيان الطفولي البريء الذي دنسته أفعال الكبار بما يرتكبونه من حمق يشعل حروبًا وصراعات تتوحش وتتوسع وتلتهم نيرانها الكتلة الأضعف من البشر، الأطفال والصغار والنساء وكبار السن في تراجيديا سوداء، ودراما لا منطقية ولا إنسانية، ملامحها الموت والتشرد والضياع، إنه الجنون الإنساني في أبشع صوره.

فما ذنب الصغيرة أن تفقد أباها دون أن تعرف له مصيرًا؟! ما ذنبها أن تعيش بلا أب يحنو عليها؟! ما ذنبها أن تعيش في مثل هذا المكان الموحش؟! ما هو الذنب الذي اقترفته حتى تنام كل ليلة في حضن أمها الصغيرة يلفهما الخوف

والقلـق؟! مـا ذنــب دارين حــتى تقـف عـلى خافـة صراع لا يرحم؟!!!

روت لي أمهـا ذات العــشرين عامًــا أنهـا لا تعــرف مصــير زوجهـا « سمـير « الـذي ذهـب برفقـة بعـض الشـباب لتوفـير مـؤن ومسـتلزمات رحـلة هروبهـم مـن سـوريا عـبر الحـدود، لكنهـم لم يعـودوا، ولا يعـرف أحـد مـاذا حـل بهـم.

واضطـر الجميـع وقتهـا بعـد انتظـار طـال دون بادرة أمـل لظهـور الشـباب المفقـودين، واسـتكملت رحـلة الهـرب خوفًـا مـن رصـاص القناصـة وبطـش حـرس الحـدود.

وهـا هي تنتظـر قـدوم زوجهـا الغائـب كل يـوم، أمـا أنا، فآمل خـلال كتابـتي لهـذه السـطور أن يكـون قـد عـاد سـالمًا لزوجتـه وصغيرته « دارين».

عم جـــاسم

لم أنم في ليلـتي تلـك إلا بضـع سـاعات .. فما زالـت مـلامح صغـيرتي « دارين « تلـح عـلي، وضحكـت عندمـا تذكـرت تعليقـات الزمـلاء، وضحكـت أكـثر عندما لاحـت لي ضحكتها وابتسـاماتها البريئـة الـتي خصتهـا لي وحـدي دون الباقـين، حاولـت وحاولـت أن أبرح مـا يـدق في رأسي مـن أحـداث اليـوم ومشـاهداته المحبطـة، ورغم إرهـاق الرحـلة وتعبهـا لم يصلني قطـار النـوم إلا متأخـرًا.

صحـوت مبكـرًا، وقبـل الموعـد المحـدد للقـاء بسـاعتين، ارتديـت ملابـسي، وأعـددت أوراقي كالعـادة، وتركـت غرفـتي الفاخـرة في الفنـدق الشهـير بالعاصمـة الأردنيـة عمـان، وقـررت في بدايـة اليـوم ألا ألـتزم بـبرنامج أو تعلـيمات الرحـلة الـتي

يضعها منظموها كل يوم ويبلغوننا بها؛ فقررت ألا أكون برفقة الزملاء عندما نصل إلى غايتنا اليومية، تلك النقطة الحدودية الصماء الداكنة.

وقررت أيضًا ألا أضيع ساعات الرحلة في التكليفات الصحفية المعتادة، التي لا تستغرق من وجهة نظري أكثر من ساعة على أكثر تقدير، تصريحات خاصة من المسؤولين ووصف بسيط لأحداث وفعاليات اليوم الجديد، ثم كتابة التقرير أو الخبر؛ ومن ثم إرساله على إيميل الجريدة وكفى، أما باقي ساعات اليوم فهي لمشروع الكتاب الذي قررت القيام به منذ الوهلة الأولى التي سيطرت عليّ بمشاهدات حية قاتمة لواقع اللاجئين السوريين.

وفي بهو الفندق، وبعد تناولي الإفطار وشرب فنجان النسكافيه، وعلى مقعدي الوثير أخذت أتطلع في صباحي الجديد إلى الفتيات الحسناوات اللاتي بادلنني الابتسامات مرحبات، وكعادتي البريئة، لم أكتفِ بالابتسام، وتحدثت مغازلًا لإحداهن في حوار متقطع على مدار أيام الرحلة كلها.

حينها باغت لحظتي البريئة هذه أحد الزملاء قائلًا : خطيبتك تنتظرك اليوم، طالعته باستغراب، وانسحبت الفتاة ضاحكة، ولم يمهلني أي فرصة للرد، ليستكمل مداخلاته واقتحامه الذي جاء دون إرادة أو رغبة مني، قائلًا: حبيبتك « دارين» .

هنا ضحكت وضحكت، وتبدل شعوري الغاضب لاقتحامه لمجلسي البريء مع فتاة الفندق، وقلت : ياه « دارين « ما أحلاها طفلة! وما أتعس حالها وحال أمها وأهلها! وتملكنا شعور الإحباط مجددًا، وصمتنا صمتًا مطبقًا، حتى تجمع رفقاء الرحلة اليومية وانطلقنا إلى وجهتنا المعتادة .. الحدود المقفرة التعسة.

لم أجلس كعادتي بجوار « عم عمر» السائق الأردني الذي تعودت خلال اليومين الماضيين الاستماع إلى حواراته وإجاباته المفصلة والمسترسلة عن أسئلتي الكثيرة حول محافظة المفرق، وطبيعتها القبلية، واكتفيت بالجلوس بمفردي في المقاعد الأخيرة، وأخذت أفكر وأتدبر أمر يومي الجديد.

كانت جولتنا في هذا اليوم مع فريق الهلال الأحمر الإماراتي الذي كان يقوم بتوزيع المساعدات الغذائية والطبية والبطاطين على الإخوة السوريين اللاجئين إلى الحدود الأردنية، كان مقصدنا اليوم إلى مدينة المفرق نفسها وليست مناطقها الصحراوية المقفرة.

تقابلت معهم هذه المرة في بيوت من حوائط وأسقف حقيقية، وكهرباء ومياه لا تنقطع، كانوا في أحسن حال، أطفالهم يذهبون إلى المدارس، تزورهم القوافل الطبية بين حين وآخر.

ونفذت كالعادة ما كنت أقوم به من عدم الالتزام ببرنامج الرحلة، وبتلك الاشتراطات الأمنية الصارمة التي حددها لنا مسؤولو الرحلة .. وشاهدتُ واستمعت ورصدت حكايات أكثر تعاسة من تلك التي سمعتها، حالات وروايات أكثر قتامة في تفاصيلها المفجعة.

وفي بيت صغير عتيق يتصدره باب كبير من الحديد الذي يملؤه الصدأ، بدا وكأنه لم يسكنه أحد منذ سنوات

بعيـدة، عبـارة عـن غرفـة وحيـدة واسـعة، طـلاء جدرانهـا قـديم وحمـام، وسـاحة كبـيرة بـلا سـقف، فُرشـت عـلى أرضهـا حصـيرة مـن الخـوص .. هنـا جلسـت وهنـا تحدثـت، واسـتمعت إلى روايـة « عم جـاسم»

وجدتـه واهنًـا ضعيفًـا رغم بنيـان جسـمه القـوي الـذي ينبـئ عـن مـاضي صاحبـه القـوي المؤثر في محيطـه الاجتماعي، والـذي وصفـه بلهجتـه السـورية، وبكلمـات كلهـا حـزن وأسى: إنـه كان « أبضـاي »، فـلم يكـن هـذا الرجـل الضعيـف قليـل الحـال، قالهـا أسـفًا حامـدًا الله عـلى قـدره ومشـيئته.

حملـت زوجتـه الخمسـينية أكـواب الشـاي بالنعنـاع، ووضعتهـا بجـوارنا، وجلسـت بعيـدًا هي والأطفـال الثلاثـة الـذين كانـوا يتطلعـون إليَّ باهـتمام واضح، وجدتهـا لا تختلـف حـالًا عـن زوجهـا « عم جـاسم « فـرغم ملابسهـا الـتي أنهكتهـا كـثرة الغسـيل، إلا أنهـا كانـت تبـدو أنهـا امـرأة ذات شـأن لأسرة كبـيرة.

كان هـذا حالها هي والأطفال الصغار الذين كانوا يرتدون ملابس وأحذية قديمة، لكنها كانت غالية الثمن؛ الأمر الذي يؤكد بجلاء أنهم كانوا يعيشون في يسر.

وروى «عم جاسم» : لقد أجبرتني الظروف على ترك بيتي الكبير، وأسرتي الكبيرة وأهلي وجيراني، وعزوتي في محافظة حماة، فقد تغير وتبدل الحال، فلم تعد المقاهي والأماكن كما كانت من قبل؛ فقد حل الدمار على كل الأشياء بسبب القصف المتصل وإطلاق الرصاص الكثيف.

لم أزل أتذكر البيوت المتهدمة على ساكنيها، والجثث الملقاة على قارعة الطريق وفي الأزقة والشوارع الضيقة، فلا أحد يستطيع الاقتراب من جثة ملقاة على الأرض، خوفًا من رصاص القناصة الذين كانوا يعتلون البنايات وهم ينتظرون بدم بارد فريستهم ليقتنصوها فرحين.

ويستكمل روايته وهو ينظر إليَّ وإلى أوراقي بقوله : صدقني يا بني هناك الكثير من القتلى الذين ماتوا حرقًا داخل بيوتهم بسبب براميل المتفجرات التي ألقيت عليهم دون

سابق إنذار، وهناك آلاف الجرحى الذين أزهقت أرواحهم لأنهم لم يجدوا من يسعف جراحهم أو يطبب مرضهم، مؤكدًا أنه مهما روى وتحدث فلن يستطيع أن يصف ما يحدث في محافظات ومناطق وشوارع سوريا التي تحولت من أماكن تزدحم بالبشر والحياة إلى مجرد أطلال تسكنها الأشباح، فالوضع مأساوي ومفزع للغاية.

وبنبرة أسى قال وهو ينظر إلى الأطفال الثلاثة الذين اقتربوا منا مستمعين بإنصات: هربت من كل هذا الجحيم خوفًا على زوجتي وابنتي الوحيدة، وأطفالها الذين فقدوا أباهم، الذي قُتل خلال إحدى التظاهرات التي اندلعت ضد النظام السوري منذ عدة أشهر، النظام الذي لم يتردد رجاله في قتل المتظاهرين بلا رحمة أو روية.

وترملت ابنتي في عز شبابها، التي لم تعش مع زوجها، ابن أخي الذي كنت أعتبره ابنًا لي إلا ثماني سنوات فقط ، وتيتم أحفادي وهم صغار، وغيب الموت غدرًا أباهم، ولم تمكنهم الأيام فرصة أن يتربوا في كنفه وعزه، وضاع منا كل شيء .. ولم تعد حماة هي حماة، ولا سوريا هي سوريا.

وأصبحت أنا وفي هذا السن الكبير مسؤولًا عن صغار يحتاجون إلى يد وهمة قوية تعينهم على الحياة، وتيسر لهم سبل العيش الكريم، أصبحت فجأة مسؤولًا عن مستقبل أراه بعيدًا عني لا أستطيع الوصول إليه، مستقبل أراه غامضًا في ملامحه بسبب واقع عشناه برائحة الدم والقتل.

ولم يأبه «عم جاسم» بالأطفال الجالسين المنصتين وكلهم ملامح تشبه المكان والحوار، واستكمل حديثه بقوله: إنه لا يستطيع أن ينسى أبدًا ذلك اليوم الذي جيء فيه بجثة ابن أخيه وزوج ابنته محمولًا على الأعناق، حينها شعر بأن المأساة كبيرة والمصاب عظيم، داعيًا الله أن يعينه على تحمله، لكنه لم يكن يظن أبدًا أن يتحول الوضع إلى كل تلك المأساة التي طالت كل شيء.

وامتلئت عينا «عم جاسم» بالدموع وهو يصف لي كيف تلقى، وكيف استمع لصراخ ابنته على زوجها الذي قتل بلا رحمة .. وكيف شاهدها وهي تحتضن جثته.. وكيف توارى عن الأعين وهو يبكي حرقة وقهرًا.. وأمسك بيدي قائلًا :

«أنا كــبرت وســوريا راحــت والعيــال صغــار» وســكت.
وودعتــه صامتًــا.

ســـارة

خرجـت مـن بيـت «عم جـاسم» المكلـوم ولا أعــرف أين أذهـب، بعـد أن فقـدت رفقـاء الرحـلة وسـيارة الهـلال الأحمـر الإمـاراتي الـتي كانـت تقلنـا، ولم أشـعر حينهـا بأي قلـق أو تـوتر لفقـدان المرشـدين .. فكيـف أتـوتر لمجـرد غيـاب ومـا زالـت تـدق في رأسي ومسـامعي كلمـات الرجـل المسـكين وحكايـة ابنتـه الـتي ترملـت فجـأة في أحـداث لا توصـف إلا بكونهـا الحمـق والجـبروت، والظـلم الإنسـاني في أبشـع صـوره!

سرت بـلا هـدف محـدد يمينًـا نحـو شـارع ضيـق ممتـد طـولًا حامـلًا حقيبـتي وأوراقي ونظـارتي الشمسـية الـتي ترافقـني طـوال الرحـلة، كان يتملكـني في هـذا الوقـت شـعور غريـب مـن القلـق لم أعـرف كنهـه.

الآن أدركت معناه بعد مرور عامين على الرحلة، تيقنت أن قلقي كان نابعًا من أن ما تعرض له « عم جاسم « وابنته ليس ببعيد عن أي منا، وربما يكون قريبًا جدًّا وقريبًا للغاية.

تيقنت أن خوفي نابع من تلك الكلمات البشعة التي اخترقت مسامعي حول ما يحدث خلف السياج الحدودي من مظاهر القتل والترويع والتدمير التي طغت على كل شيء، وعدم الاكتراث بجثث أناس قتلوا ولا ذنب لهم في هذه الدنيا إلا كونهم ولدوا وتربوا في هذه الأرض التي أصبحت موطنًا لصراع طائفي وديني يتكالب عليه سماسرة كثر دون أن يحكمه منطق أو عقل.

وعرفت من أصحاب الروايات التي سمعتها أن الصراع الدائر هناك لم يحدث بالصدفة، وإنما هو بفعل فاعلين ومحرضين ومشاركين يبغون مكاسب ومصالح خاصة، وعرفت أن حقوق البشر المطحونين، وآمال الشباب الطامح في غد ومستقبل أفضل قد ذهبت أدراج الرياح.

شباب تحولوا إلى أداة في يد طغاة، وفي يد دول، وأجهزة مخابرات وجماعات تخطط لغايات مغايرة تمامًا لأهداف وآمال الشباب الساذج النبيل الذي وقع في الفخ وتحول من كونه بطلًا وقائدًا لثورته إلى مجرد ضحية في أتون التعذيب والهدم والقتل والضياع.

وأصبح التشرد هو السائد الأعظم في البلد العريق المتجذر، وأصبح كثيرون من أهله أشتاتًا، وتحولوا إلى مجرد أرقام في قوائم اللاجئين على الحدود يتم إحصاؤهم كل يوم.

وبعد رحلات الهروب التي لم تكن أفضل حالًا من معاناتهم ومصيبتهم وكارثتهم في وطنهم الضائع الذي لا تنقطع فيه أصوات القنابل والرصاص وتهدم البيوت، لم يجدوا غير خيام بالية شيدت دون اكتراث على أرض مقفرة، لم ينبت فيها عشب ولا نبات إلا بالصدفة الصعبة.

وتيقنت أيضًا من الرواة الهاربين من الجحيم السائد خلف الحدود أن حركات التحرر والثورات الوطنية لابد لها من قوة تحميها، وعقل يديرها ويدرك مخاطرها، وفطنة لا

تنساق وراء دعوات مجهولة، وأنها تحتاج لفكر يدير الصراع بحكمة وفق تحديات الواقع وضرورات الحفاظ على مقدرات الوطن وأرواح الناس.

وبين خطواتي البطيئة التي لا تعرف هدفًا ولا مقصدًا، تذكرت تلك الثورات التي حدثت في ماضينا القريب.. تلك الحركات التحررية التي نجحت بقدر ما حينها، ورغم التحفظات التي قيلت عنها، لكنها على كل حال لم تشهد تدميرًا أو قتلًا مثل الذي نشهده الآن .. تذكرت أنها كانت بعقل يديرها، وقوة تحميها، ولم تكن تسير في طريق مجهول.

وقاطع أفكاري وشرودي صوت ثلاثة أطفال يهرولون نحو كرتهم التي ركلوني بها دون اهتمام، كأنهم يودون إفاقتي من حواري الصامت، بدا لي من صراخهم الطفولي لهجتهم السورية الواضحة.

ومن بعيد لاحت لي سيارة رفقاء الرحلة وبرفقتها سيارة أخرى محملة بالمؤن الإغاثية والبطاطين، يقوم فريق الهلال الأحمر الإماراتي بتوزيعها على الأسر السورية اللاجئة

والمقيمـة في المنطقـة.

تحركـت ببطـء نحـوهم منشـغلًا بلهـو الأطفـال الـذي أعجبـني، ولم أكـترث كثـيرًا بتحـرك القافـلة وأنهـم في طريقهـم للرحيـل، وعندمـا اقتربـت مـن البيـت الـذي تركـه الرفقـاء وجدتـه يلـوح لي مرحبًـا .. مرتـديًا جلبابـه البـني الداكـن متكئًـا عـلى عصـاه القديمـة، ممسـكًا بيـده الجريحـة.

نظـر إليَّ باهـتمام واضح وهـو يشـير إلى اتجـاه انطـلاق القافـلة والرفقـاء، وعندمـا وجـدني لا أهـتم بأمـر الراحلـين دعـاني ملحًّـا لـشرب القهـوة، واسـتجبت لدعوتـه الـتي أردتهـا أيضًـا بإلحـاح، وجلسـنا عـلى رصيـف الشـارع الضيـق بعـد أن صممـت أن نجلـس بالخـارج تحـت أشـعة الشـمس الـتي طلـت عـلى منطقتنـا الحدوديـة عـلى اسـتحياء كأنهـا تـود ملاطفتنـا في هـذه الأثنـاء الموحـلة بالـروايات الموحشـة.

لحظـات وجـاءت حامـلة أكـواب القهـوة الصغـيرة وزجاجـة الميـاه البـاردة، فتـاة صغـيرة مثـل ملامحهـا، رأيـت في ملامحهـا وخطواتهـا سـنوات عمرهـا الـتي لا تتعـدى الثـماني عـشرة بأي

حال من الأحوال، ملابسها طفولية لا تتناسب مع المرحلة العمرية التي تخطو نحوها، كأنها تريد أن تداري أمرًا جللًا عن الناس.

نظرت الصغيرة لي على استحياء، وتركت مجلسنا وأكواب القهوة، ووجدت في ملابسها خجلًا وخوفًا من الأنوثة التي تخطو نحوها.. وكأنها تعرف أن هناك مصيرًا غامضًا لا تريده ينتظرها بسبب هذا القادم من عمرها ، ففضلت أن تخبئ أنوثتها بين ملابسها الطفولية اللافتة.

وبين رشفات القهوة العربية وبين انشغالي بصغيرتنا باغتني الرجل بسؤاله: أنت صحفي؟ أجبته مبتسمًا ومؤيدًا للأمر الذي يريده.

وقال وهو ينظر إلى يده الجريحة وعصاه الملقاة بجوارنا: اسمي جابر، أما عن قصتي أنا وأولادي فهي صعبة ومؤلمة لن تتحملها صفحات أي جريدة.

وروى « عم جابر « دون أن أطرح أي سؤال: كنت أعمل سائقًا في سوريا بمنطقة « درعا « كنت أعيش أنا وزوجتي

وابنتـاي وحفيـدي عمـر، في بيـت كبـير يـضم أشـقائي كلهـم وفجـأة! ضاعـت الحيـاة مـن بيننـا بعـد أن اندلعـت الثـورة وارتفعـت وتـيرة ممارسـات الاعتقـال والتعذيـب والقتـل.

عـدت ذات يـوم أنا وزوجـتي وابنـتي الصغـيرة لنجـد البيـت الـذي عشـنا فيـه طـوال حياتنـا عبـارة عـن بقـايا؛ فقـد تهـدم عـلى ابنـتي الكـبرى، وحفيـدي عمـر، وأشـقائي وأبنائهـم ، مـات الـكل تحـت أنقـاض البيـت العتيـق، الـذي لم نكـن نتخيـل في يـوم مـا أن نعيـش بعيـدًا عنـه أو في مـكان آخـر غـير جدرانـه وحوائطـه الـتي بنيناهـا عـلى مـدار سـنوات كثـيرة مضـت، هي عمـرنا كلـه.. وسـقطت عـلى بيـت العائـلة فجـأة براميـل المتفجـرات لتتهـدم جدرانـه وحوائطـه ويحـترق كل مـن فيـه.

وعـلى مـدار ثلاثـة أيام كامـلة تمكنـا بصعوبـة جـدًّا مـن إخـراج الجثـث مـن تحـت الأنقـاض، فليـس هنـاك قـوات أو معـدات للدفـاع المـدني الـتي تعـين في مثـل هـذه الحـالات؛ وهـو الأمـر الـذي زاد مـن صعوبـة وجـود ناجـين وسـط الـركام واختلطـت بقـايا ضحـايانا مـع بقـايا الأشـياء في مشهـد مـؤلم أحسسـنا فيـه بضعفنـا وهواننـا وقـلة حيلتنـا.

وفي اليـوم الرابـع، قمنـا بدفـن الضحـايا في مقـابر جماعيـة أعددناهـا في إحـدى سـاحات الحي؛ لأننـا لم نتمكـن مـن الوصول إلى مقـابر الأجـداد والآباء خوفًا مـن طلقات المدفعية ورصـاص القناصـة، الـذين ينتظـرون بفـارغ الصـبر أي تجمـع ليكـون هدفًـا سهـلًا للقنـص وللقتـل.

واستكمل « عم جابر « روايته قائـلًا : وبعـد أن قتـل أهلنـا، وتهـدم بيتنـا الوحيـد أخـذنا نتنقـل مـن منطقـة لأخـرى، ومـن حي لآخـر، ومـن بيت لبيت بحثًا عـن الأمـان الغائـب الـذي كان يضيـع بـين ليـلة وأخـرى بسـبب الاعتقـالات وأعمـال القتـل والتدمـير.

كانـت تباغتنـا خـلال الأحـداث المتسـارعة المروعـة وجـوه غريبـة لم نألفهـا مـن قبـل في سـوريا، جنسـيات غـير عربيـة لم تعـش بيننـا مـن قبـل، ولهجـات وألسـنة لم نسـمعها مـن قبـل، ولم نعـرف مـن أين أتـوا، ولا لمـاذا هم بيننـا الآن ؟ .. وتفرقنـا نحـن أبنـاء الوطـن والأرض الواحـدة بسـبب خـلاف لم نعرفـه مـن قبـل.

كانت تتعالى أصوات ونبرات وجوه، ولحى مشعرة طويلة تطالبنا بالقصاص ومحاربة الكفرة الذين يقتلوننا، حينها لم أهتم كثيرًا لأنني لم أفهم حواراتهم وشعاراتهم الدينية التي لم نكن نسمعها من قبل في مساجدنا أو حتى مجالسنا العامة أو الخاصة، لغة جديدة لا تعرف التسامح، كلمات تحض على العنف والقتل باسم الدين.

واستغل الغرباء المآسي التي تعرضنا لها، وتاجروا بآلامنا وأوجاعنا لتحقيق غايات خاصة في نفوسهم، وأصبح العنف الذي يغلب على المشهد هو السبب الذي جعل البعض يمارس نفس أفعال النظام القاتل بدعوى محاربة الكفر والظلم، ودخل شباب كثر مسار العنف، ودخلت سوريا كلها في أتون ومحرقة أضاعت كل شيء، ولم يسلم منها إنسان أو حتى حجر.

وقطع « عم جابر « إنصاتي الشديد له بندائه على ابنته « سارة « طالبًا الماء البارد، واستجابت الصغيرة لطلب والدها سريعًا، وتيقنت حينها أنها كانت تجلس وراء الجدار، وأنها كانت تستمع لكل حرف دار بيني وبين أبيها،

وتمعنت النظر إليها مليًّا هذه المرة.. وجدتها كيانًا حزينًا.

وعرفت النبأ الصادم .. الصغيرة سوف تتزوج عما قريب من رجل قارب الستين عامًا، يقدم لهم مساعدات مالية شهريًّا، وسيقوم باستئجار بيت جديد لهم، لم أتوارَ حينها عن إعلان تذمري الشديد وصافًا إياه بأنه استغلال لفتاة في مقتبل العمر.

قال أبوها الذي كرهت سلوكه ومبرره الأرعن الأناني ردًّا على انفعالي وغضبي : « شو عليه أنو زلمة أبضاي »، كأنه يريد أن يمنحني المبرر بأن العريس رجل مقتدر بلا عيب يمنعه من الزواج.

وقتها .. لم ألتفت ولم أهتم، ولم أدون كلماته حول مشاركاته اليومية في مساعدة الجرحى، وروايته حول تفصيلات حادث إصابته وجروحه الكثيرة التي قيدته عن الحركة والعمل.

لم يشغلني حينها إلا سارة» التي أربكتني جدًّا، وغيرت كثيرًا من نظرتي نحو المشهد الذي أراه شاخصًا أمامي

بقبحـه وإجرامـه .. « سـارة » الـتي سـتقضي صفقـة زواج غـير متـكافئ وغـير إنساني عـلى أحلامهـا وبراءتهـا بـلا رجعـة .. حلمهـا أن تعيـش وتحيـا مثـل قريناتهـا الصغـيرات .. حلمهـا أن تـتزوج مـن شـاب يشـبهها، تعيـش معـه حيـاة طبيعيـة لا صفقـة فيهـا ولا تجـارة.

تألمت كثيرًا عندما خُيـل لي أن الصفقـة ستتم، وأن البائـع سـيقبض الثمـن البخـس لبضاعتـه الـتي لـن تـدرك مصيرهـا إلا عندمـا تتـذوق آلام الـذبح اليـومي عـلى يـد المشـتري الـذي اسـتغل احتيـاج وضعـف البائـع، وعـرف بمهـارة كيـف يعقـد صفقتـه الرابحـة مـن وجهـة نظـره المتعطشـة لرغبـات بليـدة زائفـة.

وآلمـني أكـثر وأكـثر عندمـا يصـف طرفـا الصفقـة بأنهـا زواج، مسـتغلين فيـه قلـة حيـلة الصغـيرة .. ذات الأغصـان الخضـراء النضرة الـتي ستجد نفسهـا فجـأة بـين يـدي رجـل ملامحـه باليـة جوفـاء، مثـل جـذوع الأشجـار الميتـة، رجـل يريـد أن يرتـوي مـن نبـع لـن يمنحـه شربـة الحيـاة الـتي يريدهـا، رجـل يعـرف في داخـله أنـه يتعـدى عـلى حـق الـبراءة مثـل زمنـه الجائـع.

« سارة « تعرضت قبلها لمآسٍ وضغوط نفسية كارثية، وفقدت أناسًا أعزاء عليها من الأهل والأصدقاء، ورأت جثثهم أمامها، وواجهت ممارسات الظلم والقهر هي وأفراد أسرتها، وضاع منها مستقبلها التعليمي، وهاهي الآن تواجه نوعًا آخر من أشكال الظلم مرة أخرى من أقرب الناس إليها .. أبيها الذي قرر أن يبيعها في صفقة بثمن بخس .. بخس للغاية.

« سارة « تتعرض لاستغلال حقيقي في أحقر صوره وملامحه العفنة، لقد جاء المشتري واتفق على شراء سلعته مستغلًّا حالة الاحتياج والعوز كي يحصل على مبتغاه كصائد محترف يبحث عن فريسة تلبي له ممارسات ذكوريته الضائعة الكريهة بوسيلة أكثر كرهًا يقبلها المجتمع، ولم يجد الأب البائع في فقره إلا ابنته كي يحصل هو الآخر على مبتغاه.

وفشلت كل محاولاتي مع الأب البائع كي أثنيه عن عزمه تزويج ابنته الصغيرة ذات الثمانية عشر ربيعًا من رجل ستيني في شتاء عمره ، فعلته التي لا أصفها إلا بأنها جُرم في حق

البراءة.

لم أجد في نهاية جلستي معه وفي آخر كلماتي إلا قولي له إنني سأسعى لدى مسؤولي الإغاثة الدولية كي يقدموا له دعمًا كافيًا ومساعدة تعينه على تكاليف الحياة، لم أجد لديه أي استجابة لمحاولتي الأخيرة.

كنت أحدثه حينها وأنا أشعر بأنفاس الصغيرة خلف الحائط، وسمعت أنينها الخفي، وودت أن لو سنحت لي الفرصة كي أربت على كتفها مواسيًا .. وعندما هممت بالرحيل رأيتها أمامي شاخصة بعينيها الحزينة .. كأنها أدركت ما أردت.. واقتربت منها وفعلتها .. وصافحتها وأنا أربت على كتفها.

.. وسرت مستسلمًا تاركًا ورائي « سارة « التي ما زالت نظرات عينيها و أساها وحزنها أمام عيني كأني ما تركتها.

علي والصغار

«آمنة» و «عمار» و «إلهام « و» مرام « أطفال صغار يلهون بإصرار وحماس شديدين في ركن الألعاب بالمستشفى الميداني الذي شيده الهلال الأحمر الإماراتي في إحدى المناطق القريبة مع الحدود السورية لتسهيل عملية إجلاء وإسعاف الجرحى، كأنها المرة الأولى أو الأخيرة التي يمارسون فيها اللعب، وجدتهم يتناوبون امتطاء لعبة الأرجوحة، كأنهم يرغبون في القفز إلى السماء وملامسة السحاب، هربًا من واقعهم المؤلم التعس.

عندما اقتربت منهم أكثر، وجدت خلافاتهم تشتد بسبب رغبة « آمنة « و» مرام « في الاستحواذ على اللعبة لأكبر وقت ممكن، وكادت الخلافات تتحول إلى تشابك بالأيدي

لولا اقترابي منهم أكثر، محاولًا أن أقلل من حدة الخلاف والصراع القائم الذي سرعان ما انتهى بصعود الصغير عمار إلى اللعبة منافسًا.

قالت لي « مرام « ذات السنوات السبع بعد إلحاحي في الحديث معها إنها من منطقة درعا السورية، وأن أباها قد قتل، ولا تعرف كيف مات، لكنها تعرف أن الذي قتله شبيحة « بشار « - على حد قولها - وأنها رأت منزل أسرتها وقد تهدم مثل أغلب منازل حيهم، وتهدم معه حديقته الواسعة، وأرجوحتها التي شيدها أبوها بين شجرتي تين.

وسألتها متى حدث هذا؟ .. فهمت من ردها أنه حدث منذ سنة أو ربما شهرين، أو ثلاثة أسابيع، أو ربما عشرة أيام، هذا ما قالته دون أن أتمكن من تحديد الوقت الحقيقي لمغادرتهم سوريا.

لم يكن لديها الوقت الكافي لمحادثتي والاهتمام بي وبأسئلتي الكثيرة، وبالكاد أخبرتني أنها تدرس بمدرسة « صالحة « بمدينة المفرق، وأنها في الأغلب لا تذهب إلى المدرسة التي

لا تحبها؛ بسبب مدرس اللغة العربية والمناهج الصعبة التي لا تفهمها، وأنها لم تذهب اليوم كالعادة إلى المدرسة لمرافقة أمها وخالتها للاطمئنان على شقيقها «علي « المريض .. وتركتني مفضلة اللعب ومشاكسة رفقاء اللهو.

وجدت ركن الألعاب الذي شيده مسؤولو المستشفى باهتمام، لا يفصله إلا أمتار قليلة عن أحد الأقسام الطبية التي تقدم خدماتها العلاجية لأسر هؤلاء الأطفال؛ حيث يرقد شقيق مرام مريضًا بقسم الطوارئ جراء إصابته بطلق ناري في البطن، وهم في رحلة هروبهم هي وأمها وشقيقتاها، وشقيقها الجريح ، كنت أود أن أحكي كثيرًا معها محاولًا أن أعرف تفصيلات أكثر عن قصة هروبهم، لكنها كانت تنشغل عني دون اهتمام وهي تزاحم أقرانها الصغار في اللعب .

أما الصغير المشاكس «عمار» فكان الأكثر تحدثًا واهتمامًا بي، رغم كلامه غير المفهوم بسبب سنوات عمره التي لم تتجاوز السبع، إلا أنني فهمت منه بمساعدة «آمنة» أنه ترك بيته في حمص هو وأسرته منذ فترة لم يحددها باليقين، وأنه فقط يريد أن يعود إلى هناك؛ لأن بيتهم جميل به حديقة كبيرة

ومكان للعب الدراجة.

وفي مفارقة غريبة ومفاجئة قال لي عمار مقاطعًا: إن خاله يحارب بشارًا، ليستكمل اللعب مرة أخرى بعد أن رأى «مرام» تستحوذ على الأرجوحة، ودون أن يلتفت إليَّ، كأنه يقول لي اذهب ودعني ألعب فقد أعطيتك من وقتي الكثير.

حاولت بشدة أن أشجع «إلهام» ذات الأحد عشر عامًا، وشقيقتها «آمنة» التي تصغرها بخمسة أعوام كي تتجاذبا أطراف الحديث معي، ونجحت في أن أجعل إلهام التي لا تهتم بأحد إلا بشقيقتها الصغيرة أن تقول لي إنهما هنا في المستشفى مع أمهما وزوجة خالهما، الذي يرقد بقسم الجراحة؛ بسبب كسر في قدمه حدث له أثناء هروبهم من درعا.

وحول أوضاع عائلتهما في سوريا، روت لي إلهام أن كل أقاربهم نزحوا إلى الأردن تاركين كل شيء، ولم يحملوا معهم إلا ملابسهم فقط، إلا أن شقيقيها ما زالا هناك ليحاربا شبيحة

بشـار، وأن أمهمـا حاولـت معهمـا أن يأتيـا معهـم إلى الأردن، لكنهمـا رفضـا، مفضلـين البقـاء هنـاك.

وبعـد أن أنهيـت حديـثي الصعـب مـع الصغـار الأربعـة، سـعيت للوصـول إلى « عـلي « شـقيق مـرام الـذي وجدتـه أخيرًا راقدًا عـلى سريره بقسم الطـوارئ الملاصق لركـن ألعـاب الأطفـال ، وحاولـت أن أتحـدث معـه، لكـن محاولـتي كانـت صعبـة للغايـة.

فـتى صغـير، لا يتعـدى عمـره الثمانيـة عـشر عامًا، حـاد الملامح، لم يكـترث كثـيرًا بوجـودي ولا بأوراقي ولا حـتى بابتسـاماتي المتكـررة له، ولم يهـتم بالفريـق الطـبي المعـالج وهم يطببـون جرحـه، ملامحـه ونظراتـه تائهـة، أمـا ردود أفعـاله، فكانـت غـير مباليـة بمـا يحـدث حـوله.

قـال لي طبيبـه إنـه تعـرض لحـادث خطـر، ونزف كثـيرًا بسـبب إصابتـه بطلقـين ناريـين أصيـب بهمـا في بطنـه، وأنـه الآن في طـور الشـفاء بعـد أن تم إخـراج الطلقتـين .

ورفـض «عـلي» أن يتحـدث كثـيرًا، ولم يهـتم بأسـئلتي،

مكتفيًا بتوجيه لوم شديد للعالم أجمع الذي لم يفعل شيئًا حقيقيًّا على حد قوله، فقد قُتل أبوه غدرًا وظلمًا دون أن يعرف قاتله، واضطروا لترك بيتهم وحارتهم وكل شيء.

وتمتم «علي» كثيرًا بكلمات لم أفهمها، لكنها كانت غاضبة، ثم سكت فجأة من شدة الألم؛ فأشارت لي ممرضته، فودعته متمنيًا له الشفاء على أمل لقاء آخر صباح غد.

وفي اليوم التالي قررت أن أقوم بزيارة خاصة جدًّا إلى الفتى المريض، على أمل أن أحظى بقدر من التفصيلات عن حياته، وأن أجد إجابة منه على أسئلة كثيرة كانت تدق في رأسي طوال الليل، وتوقعت أنه سيكون في هذا اليوم أكثر اهتمامًا بي وبأسئلتي.

وصلنا مبكرًا إلى المستشفى الميداني لرصد أنشطة المسؤولين عنه وما يقدمونه من مساعدات طبية وإغاثية للمرضى وذويهم.

وقررت كعادتي ترك الزملاء ومسؤولي الرحلة وعدم التقيد بأي برنامج أو التزام، والذهاب لزيارة الفتى الجريح، ودخلت

بعـد اسـتئذان المرضـة، ولم أجـد «عـلي».

وعندمـا سـألت .. قالـوا لي إنهـم اسـتيقظوا مبكـرًا ولم يجـدوه عـلى سريره، ولم يجـدوا متعلقاتـه البسـيطة للغايـة.

وتيقـن الجميـع أن الفـتى «عـلي» قـد غـادر بجراحـه غـير الملتئمـة، وترك أمـه وشـقيقاته.. تركهـم وقـرر الرحيـل هـربًا مـن حـرس الحـدود الأردني هـذه المـرة، ذاهبًـا إلى الداخـل السـوري.

ناقل الموتى

لم أجد فائدة من سيارتي التي كنت أنقل بها الركاب من منطقة درعا إلى مناطق سوريا القريبة الأخرى؛ فلم يعد هناك زبائن بعد أن توقفت الحياة، وجدت نفسي مع مرور الوقت أنقل الجرحى والجثث من تحت أنقاض البيوت المهدمة إلى المستشفيات، وحُفرت بداخلي مشاهدات مؤلمة، وملامح بؤس وتعب لأناس أحبطهم القهر والظلم.

وروى « أبو محمد « الحكاية من أمام بوابة المستشفى الميداني الإماراتي بمدينة المفرق في صباح اليوم الذي كنت مستعدًّا فيه لمقابلة الفتى السوري « علي « الذي هرب فجأة إلى الداخل السوري، وسط استغراب واندهاش الكل من التصرف غير المتوقع والغريب؛ الأمر الذي أحدث زوبعة بين المسؤولين عن ملف اللاجئين في المنطقة.

في هذا اليوم التقيت « أبو محمد « وجدته في أوائل الخمسينات من عمره، ملابسه رغم أنها كانت قديمة، لكنها

مهندمة للغاية مثل أفكاره المرتبة، لديه حمية كبيرة لتأكيد وكشف وجهة نظره حول حقيقة ما تتعرض له بلدان الوطن العربي من مؤامرات ودسائس بهدف تدمير هذه الدول وتقسيمها.

حواره معي كان رغم مرارة الكلمات التي حدثني بها ورغم الحسرة التي كانت عالقة في لسانه، إلا أنه كان حديثًا منمقًا قويًا، ينم عن ثقافة وقراءة واعية، خاصة عندما أشار إلى النعرة الطائفية التي بدأت تغزو عالمنا العربي فجأة، وتحول الشعب الواحد الذي كان يعيش في تناغم وتراضٍ إلى فرق وجماعات لا تؤمن بقيمة الإنسان بقدر إيمانها بقدسية أفكارها ومصالحها.

وتساءل: كيف تحولت الشوارع والأحياء العربية التي كانت تزخر بالمقاهي وجلسات الرفقاء أمام المنازل في الأمسيات المضيئة بإنسانيتنا إلى ساحات صراع أحمق وخلافات يؤججها ويستغلها أصحاب المصالح؟! وكيف تحول الناس البسطاء الحالمون بالحرية والعيش الكريم إلى مجرد ضحايا ومشردين بين الحدود؟!

كلماته وردوده على أسئلتي كانت رصينة ومحددة لا تتسق ومهنته كسائق، التي وصفها بأنها تشبع لديه متعة خاصة في نقل الركاب ومصادقة الناس خلال رحلاته اليومية المعتادة.

واستكمل حديثه: سيارتي التي كانت تقل الناس إلى أشغالهم وبيوتهم، وتنقل الأهل والأقارب والأصدقاء إلى المناسبات الاجتماعية والأعراس، وحتى المآتم التي كنا نتقبلها بنفوس راضية لأنها قضاء الله سبحانه وتعالى، ولم تكن بفعل فاعل يسلب منا الحياة، ويقهرنا ويشعرنا بالظلم والمهانة كأننا خراف لا قيمة لها.

تغير حال سيارتي التي كنت أعتني بها كأنها ابنة لي، تبدلت وأصبحت كسيارة نقل موتى، تفوح منها رائحة الدم، وكانت لا تنقطع عن مسامعي أصوات وأنين الجرحى وحشرجات الموت الذي كان يأتي ألمًا ووجعًا وظلمًا.

لا أستطيع أن أنسى ذلك اليوم الذي تهدم فيه أحد بيوت الحي الذي كنا نعيش فيه ليموت قاطنوه تحت

الأنقاض، ولم يستثنِ الموت أحدًا؛ فقد كان الضحايا من الأطفال والنساء والعجائز والشباب، أكثر من ٥٠ ضحية انتهت حياتهم جراء القصف الجوي الغاشم الذي لا يعرف حرمة الحياة.

أسرعنا حينها إلى البيت المنهارالمحترق، وأخذنا بكل طاقاتنا نحاول إخراج الجثث، وسط بكاء كل سكان الحي الممتزج بصراخ وعويل النساء المنتحبات، أحسسنا نحن الرجال بقهر الدنيا كلها، لم نستطع حتى النظر إلى نسائنا وأطفالنا بعد أن سُلبت منا قدرتنا على حمايتهن.

وبنبرة أسى قال : كانت خمس أسر، أكثرهم من الأطفال والنساء هم أهلنا وجيراننا الذين عشنا معهم وفرحنا معهم وحزنا معهم في أيام لن تعود مجددًا بعد أن مات أبطالها، كانوا أشلاء جثث متناثرة ومتفحمة بين حطام الأسقف والجدران التي انهارات بسبب قوة الانفجار.

مر وقت طويل وساعات أطول، وظللنا على مدار ثلاثة أيام ننقل الحطام بحثًا عن أحياء بين الركام، سمعنا وقتها

أنـين جـرحى ماتـوا دون أن نتمكـن مـن الوصـول إليهـم في الوقت المناسب، لم نستطع مساعدتهم أو إنقـاذهم من المـوت المباغـت الـذي سـلب عنهـم حياتهـم.

وفي السـاعات الأخـيرة مـن البحـث عـن ناجـين، سمعنـا آنين بعـض من ظـل عـلى قيـد الحيـاة، كانـوا ينادوننـا بصـوت يصارع الموت .. المـوت الـذي لم يستثنِ أحـدًا .. المـوت الـذي لم يغفـل أحـدًا، لم تنفعهـم همتنـا لإنقـاذهم، كانـوا يحتاجـون شربـة مـاء لم تأتِ لتعينهـم عـلى التمسـك بالحيـاة التـي رفضتهـم دون إرادة منهـا، فكيـف تعينهـم وهنـاك مـن القتـلى والمجرمـين يتربصـون بهـا!

وروى « أبـو محمـد « : مـا زالـت أتذكـر حـتى الآن مـلامح الأطفـال الـذين اغتالتهـم يـد البطـش الظالمـة دونمـا ذنـب أو سـبب ، صغـار انتهـت حياتهـم وهم نيـام عـلى أسرتهـم، وهم مسـتغرقون في أحلامهـم البريئـة الحالمـة، مـا زالـت ووجوههـم ووجـوه أمهاتهـم وآبائهـم المتربـة وأجسـامهم المحترقـة عالقـة في ذاكـرتي المتعبـة المنهكـة.

ذاكرتي التي لن يكون في مقدورها بعد الآن، وبعد ما شاهدته من مشاهد كارثية تدمي القلوب، أن تتذكر أي ملامح لسعادة قد تأتي يومًا ما لي أو لأسرتي، أو لأي قريب عاش ما عشناه ، فكيف لذاكرة امتلأت بذكريات القتل والدمار أن يكون لديها مكان جديد لأي مشاهد فرح!

لم نستطع دفن موتانا إلا بعد حلول ظلام يوم تكررت مشاهده فيما بعد في أيام أخرى كثيرة وفي كل محافظات ومناطق سوريا، ليس درعا فحسب، في هذا المساء لم نجد أكفانًا للموتى .. في هذا المساء تحولت المنطقة كلها إلى سرادق عزاء .. في هذا المساء لفنا القهر والضعف والخوف من قصف صاروخي جديد يهبط علينا فجأة ليهدم بيتًا آخر، ويقتل ضحايا آخرين ، من يومها لم ينم أحد منا في بيته.

واستكمل قائلًا : كل البيوت والمدارس مستهدفة بنيران القصف الذي يهبط على رؤوسنا ليل نهار، حتى المستشفيات لم تسلم من الدمار وبراميل البارود، فكم من مستشفى احترق على من فيه من الأطباء والمرضى! وبدلًا من أن يتم تطبيب الجرحى خرجوا هم موتى ومن يطببهم.

شاهدت بنفسي وأنا أساعد في نقل الجرحى انهيار عيادة صغيرة كانت مكتظة بالجرحى جراء قصف صاروخي مقصود، حينها لم يخرج ناجٍ واحد حيًّا، كان حادثًا بشعًا وأليمًا أحدث فينا شروخًا نفسية هائلة، وكرهًا لظلم وجبروت نظام يصمم كل يوم أن يرهبنا بقوته وجبروته وخسته.

قال « أبو محمد « بحزن : كنا ننشئ عيادات صغيرة لعلاج الجرحى داخل المحلات أو الأماكن المهجورة، أو في مستودعات بعيدة عن أعين النظام الذي لا يتورع عن فعل أي شيء لإرهابنا، كان رجاله ينتقمون منا أشد انتقام وبلا رحمة؛ فقد حصلوا من النظام على تصاريح مفتوحة للقتل والحرق والخراب.

حاولت أن أخفف عنه بقولي إنها إرادة الله سبحانه وتعالى، فرد عليَّ حازمًا حزينًا : لا يرضي الله أن نقتل ونحرق وأن تضيع حياتنا، لا يرضي الله أن يتيتم الأطفال ويشردوا، ليس من العدل الذي طالبنا به الله سبحانه وتعالى أن تترمل نساء صغيرات أو يفقد رجل زوجته وأولاده ويجدهم

أمامـه مجـرد جثـث وأشـلاء.

وليـس مـن العـدل أيضًـا أن نتحـول بـين ليـلة وأخـرى إلى مجـرد أشخـاص مـشردين وهاربـين إلى الحـدود، نعيـش نصـف حيـاة في الخيـام، ونأكل مـن المسـاعدات الـتي تأتي يومًـا ولا تأتي عـشرة، أي حـق نمتلكـه الآن؟ .. فـكل حقوقنـا مهـدرة ضائعـة.

وقـال بكلمـات أكـثر تعاسـة سمعتهـا بغضـب مـا زال عالقًـا في صـدري حـتى هـذه اللحظـة: ليـس مـن الإنصـاف أن تُسـتغل فتياتنـا .. بناتنـا الصغـيرات يـتم بيعهـن في معسـكرات اللاجـئين لمـن يدفـع أكـثر في شـكل مهـور هي في الحقيقـة أثمـان لسـلع أُجـبرت عـلى أن تقبـل ذلـك الـذل كأننـا في عصـور ظلاميـة جاهليـة.

هـــــــروب

وجدتـه عابسًـا شـاردًا .. يجلـس دون اهـتمام وبـلا مبـالاة عـلى صخـرة كبـيرة مسـتوية مدببـة الحـواف، وبيـده غصـن شجـرة قذفتـه الـرياح إلى المنطقـة القاحـلة، يعبـث بـلا اهـتمام بمـا هـو تحـت قدميـه مـن حـصى ومخلفـات صغـيرة، يرتـدي جلبـابًا مهـترئًا، مـا زال أثر لونـه الأبيـض الداكـن عالقًـا في قماشـه القـديم.

عندمـا سـألته عـن اسمـه لم يجـب، وبعـد إلحاح اعتـبره بـلا مـبرر، قـال لي: لا يهـم.. أنا مثـل هـؤلاء مـن سـاكني هـذه الأرض الميتـة .. لا قيمـة لي ولا اعتبـار؛ فـلا أحـد يهـتم، ولا يـدرك أحـد حجـم المأسـاة التـي نتعـرض لهـا، أنا وأسرتي، وغـيرنا كثـيرون، تعرضنـا وما زلنـا نتعـرض لإبادة وتهجـير.

وقـال في استسـلام: اعتـبرني مجـرد لاجئ وهـارب مـن جحيم لا يطـاق وممارسـات عنـف متعمـدة ممنهجـة، يمارسهـا القاتـل ليـل نهـار.. أنا سـوري هـارب مـن وطنـه الـذي ولـد ونشـأ فيـه

.. أنا وأبنائي وزوجتي، هربنا من القصف والقتل والقمع .. هذا هو كل ما في الأمر .. لاجئ بلا اسم أو عنوان.

ورغم حالة الزحام والضوضاء اللافتة التي شهدتها منطقة الخيام بسبب قافلة المساعدات الإغاثية التي كانت برفقة حافلتنا، وتنقل أعضاء فريق الإغاثة بين الخيام لتوزيع المؤن المختلفة، ورغم قيامهم بتدوين أسماء المقيمين في المنطقة لإرسال مساعدات دورية فيما بعد.

لم يهتم الرجل، ولم يلتفت، وظل مستغرقًا في شروده، ممسكًا بغصنه القديم الذي لم يتركه من يده طوال حديثه معي إلا عندما تحدث عن رحلة هروبه من درعا إلى المنطقة الحدودية، حينها كسره بيده الغاضبة ملقيًا ببقاياه بعنف، متخليًا عن رفيق شروده إلى الأبد.

وروى عن رحلة الهروب ما لم أكن أتوقع سماعه: قُتل من كنت أرافقه الحياة بحلوها ومرها .. مات صديق عمري، وابن عمي، وزوج شقيقتي بعد أن اخترقت رصاصة قناص رأسه بلا رحمة..

فقـدت رفيـقي فجـأة في رحـلة حاولنـا بهـا أن ننقـذ حيـاة نسـائنا وأطفالنـا، ظننـا وقتهـا أننـا بهـذا الهـروب مـن القصـف والقتـل والدمـار يمكـن أن نجـد فرصـة أخـرى لحيـاة أكـثر أمـانًا.. وأرضًـا غـير تلـك الأرض الـتي أصبحـت مرتعًـا لقتـلة ومخربـين بـلا قلـب ولا حـتى عقـل، اتخـذوا مـن العنـف الأعمى المجنـون وسـيلة لإرضـاء نفوسـهـم العفنـة المريضـة.

طالنـا المـوت حـتى ونحـن في طريـق الهـرب، لم يتركنـا ولم ينسَـنا وكان لنـا بالمرصـاد، كأنـه أقـسم ألا نهنـأ بمـا خططنـا له .. كان برفقتنـا طـوال الطريـق مثلمـا كان معنـا هنـاك في أرض الدمـار الـتي انهـارت مبانيهـا وبيوتهـا عـلى سـاكنيها العُـزل الأبرياء.

وقـال حَـزِنًا: كان برفقـتي صديـق عمـري « أبـو محمـد « وشـقيقتي وأولادهـا الثـلاث وزوجـتي، بعـد أن تركنـا وراءنا كل شيء نمتلكـه، فـلم نخـرج مـن درعـا إلا بأقـل القليـل مـن الملابـس، وسرنا في طريـق الهـروب نحـو الحـدود الأردنيـة، كان يقـود سـيارته وراء السـيارة الـتي كنـت أسـتقلها أنا وأسرتي.

لاحظت خلال سيرنا المتقطع البطيء اختفاء سيارة « أبو محمد »، وانتظرنا طويلًا دون قدومه، لم أعرف كم من الوقت مر حينها، وكم من الدقائق انقضت! كان انتظارًا رهيبًا ومخيفًا لي ولزوجتي، وتربص بنا الخوف والرهبة من مجهول نعرف ملامحه وإجرامه.

فقررت الرجوع للخلف، رغم مخاطر العودة كي أطمئن عليه، ومن بعيد وجدت السيارة واقفة، تخيلت أنه حادث تصادم، وعندما اقتربنا سمعنا صراخ شقيقتي وأولادها .. وشاهدت ابن عمي مضرجًا في دمائه بعد ان اخترقت رصاصة معلومة المصدر رأسه ليموت تاركًا وراءه كل شيء.

واستكمل روايته حزنًا وألمًا أتعبني وأتعب ذاكرتي التي أنهكتها الروايات التعسة المحبطة، وقال: ظللنا وقتًا طويلًا لا نعرف ماذا نفعل! هل نعود مجددًا، أم نستكمل طريقنا نحو المنطقة المحدودة المبتغاة؟! وماذا نفعل في الجثمان؟!

حاولنا الابتعاد قدر الإمكان من المكان الخطر المستهدف من حرس الحدود والقناصة، وتكدسنا كلنا في سيارة

واحـدة، زوجـتي والأولاد وشـقيقتي الـتي ظلـت تحتضـن جثـة زوجهـا طـوال الطريـق الـذي طـال كثـيرًا رغم قـصره؛ فكنـا نسـير خطـوة ونتوقـف خطوتـين، وسـط بـكاء وصراخ صامـت لشـقيقتي لـن أنسـاه مـا حييـت.

كان الرجـل يروي بمـرارة وحـسرة حكايتـه دون أي تعليـق مـني، فقـط كنـت أدون مـا يقـوله، ولم أمتلـك القـدرة أو الشـجاعة كي أعلـق أو أسـأل، فقـط كنـت أقـول له : الحمـد لله .. ربنـا يعوضـك و ...

واسـتكمل حديثـه بقـوله: الآن أجلـس هنـا فـوق هـذه الصخـرة وعـلى هـذه الأرض لا حـول لي ولا قـوة أو حـتى إرادة، أقـيم في خيمـة مـع زوجـتي وأولادي وشـقيقتي الـتي ترملـت وأبنائهـا الـذين تيتمـوا في حـادث بشـع حقـير شـاهدوه بأعينهـم، وعاشـوا سـاعاته المؤلمـة برفقـة جثـة أبيهـم، عرفـوا فيهـا معـنى الـذل والمهانـة ونحـن في طريـق الهـرب.

أمـا « أبـو محمـد « الـذي مـات غـدرًا فقـد رافقنـا بجثمانـه الهزيـل، ونظـرة عينيـه المؤلمتـين المغمضتـين إلى الأبـد .. دون

أن يتمكـن مـن وداعنـا .. ودون أن يـوصي أبنـاءه، وعندمـا وصلنـا الحـدود لم يكـن لـدي أي هم إلا أن أجـد لجثمان رفيـق العمـر المقتـول مقـبرة، وسـاعدنا أهـل القريـة في أن نعطيـه حقـه الأخـير .. حقـه في مقـبرة لـن يعرفهـا أبنـاؤه فـيما بعـد.

ثلاث فتيات

أُجبرن على أن يعشن في شتات على حدود بلدان لم يزرنها من قبل، وفي ملاجئ وخيام شُيدت بلا اهتمام على أرض فقيرة مقفرة لا حياة فيها، وأجبرن قبلها على اتخاذ طريق الهرب خوفًا من ممارسات بشعة لا يتورع أصحابها في فعل أي شيء بلا إنسانية، تاركات وراءهن قراهن وبيوتهن، ومدارسهن وكل شيء كان له قيمة في حياتهن.

« خلود» و «أركان» و «ريم» ثلاث فتيات في عمر الزهور، يرتدين ملابس واسعة ريفية، يدارين وجوههن وشعرهن بأغطية لا تتناسب مع أعمارهن الصغيرة، كأنها محاولة لستر ما تفضحه الخيام الممزقة، ورغبة لإبعاد العيون عن ملامح أنوثة قادمة أصبحت وبالًا عليهن.

تتراوح أعمارهن ما بين الثانية عشرة والسادسة عشر على الأكثر، وبرغم أعمارهن الصغيرة، إلا أنه بدا على وجوههن ونظرات أعينهن مشاعر الإحباط والخوف والقلق والريبة من مصيرهن المجهول، حاملات في ذاكرتهن الصغيرة مشاهد مروعة من القتل والدمار.

التقيتهن ذات صباح لم تُر شمسه ساطعة كما تعود كأنه ينبئني بأن خطبه مختلف عن باقي الصباحات المشمسة التي مرت علي في مهمتي الحدودية، كان ذلك في اليوم الثالث،عندما وصلنا إلى المنطقة البعيدة وجدتها مجهولة الملامح، يلفها القلق والرهبة من كل صوب، ومن رائحة المكان التي تبعث في النفس مزيدًا من الرهبة.

أدركت أنه يوم مختلف عن سابقه، وعلى الرغم من توقعي أنني سوف أسمع وأشاهد مآسي وأحزانًا أخرى مثل تلك التي مرت علي في اليومين الماضيين، إلا أنني وجدت واقعًا صعبًا للغاية على أرض فقيرة بعيدة لقرية صحراوية، بيوتها متباعدة لا تعرف الألفة، بلدة غريبة مثل اسمها « خشاع سليتين «.

«خلود» و «أركان» و «ريم» يعشن في خيام مكشوفة، قماشها بالٍ، ولا تستر جوانبها الممزقة شيئًا بداخلها، لا أشجار ولا شوارع، ولا أي مظهر من مظاهر الحياة البسيطة والطبيعية المألوفة، فقط أرض قاحلة خطرة ملامحها صعبة عابسة، تسكنها الأفاعي والفئران، فلا أمان فيها.

لكنهن أشدن في روايتهن لي بما يقدمه أهل القرية القريبة من مساعدات بسيطة؛ فقد ساعدهم أهل الخير وأصبح لأسرهن خيام بدلًا من المبيت على الأرض، وأصبح للأسر المقيمة في المنطقة مكان يقضون فيه حاجتهم بدلًا من العراء، وأصبح لهم خزان من المياه .

وتحدثت الفتيات الثلاث باستحسان حول التغير الإيجابي الذي طرأ على حياتهن بعد وصولهن إلى هذه المنطقة الحدودية، إلا أنني لم أرَ أي تغير، مندهشًا من كلماتهن، رغم إدراكي إلى أن ما يعشنه الآن لا يقارن بما تعرضن له من قبل من ممارسات القتل والخراب.

فما زال الواقع الذي شاهدته في هذه الملاجئ المكشوفة جاثمًا على صدري، فمكان قضاء الحاجة بلا حوائط ولا باب، فقط ستائر من القماش المهترئ القديم، أما الصنبور فقد كان متدليًا من وعاء بلاستيكي قديم، ويُعبأ بالماء الذي يتم نقله من خزان المياه البعيد، لم أجد مظهرًا من مظاهر الأمان، فقط اللهم إلا أن ساكني هذه الخيام لن يجدوا صاروخا هابطًا من السماء فجأة ولا رصاص قناصة تريد حياتهم، لذلك اعتبرت الفتيات أن حالهن أكثر أمانًا عن ذي قبل.

وروت « خلود» ذات الخمسة عشر ربيعًا أنها اضطرت لترك مدرستها في «درعا» منذ عدة شهور بعد أن تم قصفها خلال النهار؛ فقررت أمها ألا تذهب إليها مجددًا خوفًا عليها، وأخذت تنتظر وتنتظر ربما يجيء يوم ما تعود فيه إلى فصلها الدراسي وزميلاتها وكتبها، لكن للأسف، لم يأتِ هذا اليوم مرة أخرى، ولم تذهب خلود إلى مدرستها القديمة أو أي مدرسة أخرى.

بعدها تكرر مشهد الإجبار مرات كثيرة، ولكن بملامح مختلفة أكثر ضراوة وأكثر ألمًا؛ فقد أجبرت على أن تترك بيتها بعد أن تهدمت أغلب البيوت الملاصقة له، وخوفًا من شبيحة النظام الذين يعتقلون وينهبون ويحرقون أيضًا بممارسات كارهة غاضبة من الناس العزل، وأخذت تنتقل هي وأسرتها من منطقة لأخرى ومن مأوى لآخر.

وبنبرة صوت تعس للغاية قالت: إنها الآن تعيش برفقة بعض من أفراد أسرتها وأهلها ممن نجوا من الأعمال الوحشية التي وصفتها بأنها الجحيم بعينه، وتقضي كل وقتها في خدمة الأطفال وحمل المياه وغسيل الملابس والأواني.

أما « أركان» ذات الاثنى عشر عامًا، فلم يعد في إمكانها الذهاب إلى أي مدرسة، ولم تعد ترسم اللوحات الزيتية التي كانت تتباهى بها بين قريناتها في مدرستها التي انهارت أغلب جدرانها، والآن هي لا تتعلم، معترفة أن مستقبلها وحلمها في أن تكون طبيبة مثل ابنة عمها قد انتهى بلا رجعة.

وتحدثت بنبرة أكثر خوفًا ورعبًا قائلة بأنها جاءت مع أمها وشقيقتها « خلود» وخالتها وعمها وبعض من أقاربها، وتركت هناك في «درعا» أباها وشقيقيها الذين لا تعرف عنهم شيئًا منذ عدة أشهر، بعد أن انقطعت الاتصالات بينهم، وأنها تتمنى أن تتحدث إليهم لكي تطمئن على حياتهم.

وآلمتني «ريم» التي لا يزيد عمرها عن الستة عشر بكلماتها المؤسفة، وتحدثت الصغيرة : لم أتمكن من اللحاق بأبي وأمي وجدتي بعد أن فروا إلى الحدود التركية، خوفًا من أن يتم اعتقال أبي على يد شبيحة النظام، وباءت كل محاولاتنا في أن نعيش معًا بالفشل.

وقالت إنها وأسرتها كانوا قبل هروبهم إلى الحدود يتنقلون بين مناطق وأحياء درعا من مكان لآخر، ومن بيت لبيت، ومن شارع لشارع خوفًا من القصف العشوائي بالمدافع وبراميل المتفجرات التي تلقيها الطائرات، التي لا تفرق بين رجل عجوز أو امرأة أو طفل، وأن كثيرًا من أفراد أسرتها وأقاربها قد قتلوا وأصيبوا في الأيام الأخيرة .

والآن تنتظر الأيام حتى تلتقي مجددًا بأسرتها، التي تحول أفرادها إلى شتات، وأشلاء ممزقة على الحدود المقفرة التي لا ترحم طفلًا تيتم فجأة، ولا تسعف عاجزًا بطشت به يد الغدر والخسة.. حدود ميتة فقيرة لا تعرف كيف تواسي امرأة ترملت تحت القصف.

وأوجعني انتظار الصغيرة لأمها كل يوم، وأملها في لم شمل الأسرة التي تقطعت بها السبل، وتمزقت ضلوعها وأواصلها بفعل فاعل، لتظل تنتظر ما لا يجيء، فما زالت السياج والأسلاك الشائكة التي يتربص وراءها القناصة مانعًا دون تحقيق الأمل في اللقاء.. ليبقى صدى صوت ريم وهي تتساءل كل مساء متى ستلتقي بأسرتها؟!

هذا هو الواقع المر الذي تعيشه الصغيرة «ريم» التي تصحو كل صباح بنفس مرهقة تعبة، لا حول لها ولا قوة، لتجد نفسها بين جدران من القماش البالي الذي لا يستر، ولا يمنح أمنًا في خيام دُقت أوتادها على أرض لا حياة فيها ولا إنسانية.

وماذا بعد ... ؟!

وبعـد أن سمعـت وشـاهدت، وبعـد أن كتبـت حـكايات مفزعـة وموجعـة رواهـا أصحابها مـن ملاجئهـم، وبعـد مـا قـرأت أنـت أخي القـارئ.. أجـدني أنا وأنـت سـويًّا نقـف أمام شـواهد مـن الخـراب والأطـلال لكيـانات إنسـانية هزمـت وتمزقـت أربًا وأشـلاءً .. وأجـد أيضًـا السـؤال المنطـقي الموجـع يـدق بقـوة فـوق رؤوسـنا جميعًـا دون إجابـة تشـفي غليلنـا وتشـعرنا بأننـا بـشر، ومـاذا بعـد ... ؟!

وقبـل أن أجيـب عـن « ومـاذا بعـد .. ؟ ! « علينـا أن نتذكـر دومًـا مـا قـاله أبطـال أطلالنـا، ربمـا يجيء يـوم مـا أو سـاعة مـا نسـتطيع فيهـا أن ننتـصر لإنسـانيتنا المهـدرة الـتي تتجـلى في كلمـات « فاطمـة « حـين قالـت : « قتـل أبي الرجـل المسـالم الطيـب القـوي سـند العائـلة كلهـا، وترملـت أمي وتيتمـت أنـا وإخـوتي، لا أسـتطيع نسـيان مشهـد موتـه، ولا صراخ أمي، خرجنـا كلنـا مـن البيـت بعـد أن حـذرنا الجـيران مـن القصـف

وبراميـل البـارود، وأننـا جميعًـا نحـن سـكان الحي يجـب أن نغـادر لمنطقـة أخـرى أكـثر أمنًـا، وغـادرنا كثـيرًا وكثـيرًا دون أن نجـد أمـانًا».

وقـول « أبـو عبيـدة « : « لقـد تهـدم البيـت الـذي بنيتـه بـدمي وأفنيـت فيـه عمـري، وقتـل الأعـزاء والأصدقـاء بـدم بارد، وتـشرد الأطفـال، وترملـت نسـاء عائلـتي بـلا مـبرر أو ذنـب .. حـدث ذلـك ذات ليـلة دون أن نتمكـن مـن الدفـاع عـن أنفسـنا، جـاءنا الغـدر خلسـة وفي أحقـر صـوره لنتجـرع مجـبرين مـرارة الفقـد والضيـاع «.

ويجـب ألا نتنـاسى مـا رواه «عم جـاسم « : « لم أزل أتذكـر البيـوت المتهدمـة عـلى سـاكنيها، والجثـث الملقـاة عـلى قارعـة الطريـق وفي الأزقـة والشـوارع الضيقـة، فـلا أحـد يسـتطيع الاقـتراب مـن جثـة ملقـاة عـلى الأرض، خوفًـا مـن رصـاص القناصـة «.

وفجيعـة « عم جـابر « الـذي قـرر تزويج ابنتـه الصغـيرة « سـارة « لرجـل قـارب السـتين عامًـا في صفقـة بيـع مقـززة :

«عدت ذات يوم أنا وزوجتي وابنتي الصغيرة؛ لنجد البيت الذي عشنا فيه طوال حياتنا عبارة عن بقايا؛ فقد تهدم على ابنتي الكبرى وحفيدي عمر وأشقائي وأبنائهم ، مات الكل تحت أنقاض البيت العتيق «.

وكلمات « مرام « ذات السنوات السبع البريئة: « إن أباها قد قُتل، ولا تعرف كيف مات، وأنها رأت منزل أسرتها وقد تهدم مثل أغلب منازل حيهم، وتهدمت معه حديقته الواسعة، وأرجوحتها التي شيدها أبوها بين شجرتي تين».

وما حكاه « أبو محمد « : « ما زالت أتذكر حتى الآن ملامح الأطفال الذين اغتالتهم يد الموت الظالمة دونما ذنب أو سبب، صغار انتهت حياتهم وهم نيام على أسرتهم، وهم مستغرقون في أحلامهم البريئة الحالمة، ما زالت ووجوهم ووجوه أمهاتهم وآبائهم المتربة وأجسامهم المحترقة عالقة في ذاكرتي المتعبة المنهكة «.

ويجب ألا ننسى الفتيات الصغيرات: « خلود « و» أركان

« و « ريم « كيف أجبرن على أن يعشن في شتات على حدود بلدان لم يزرنها من قبل، وفي ملاجئ وخيام شُيدت بلا اهتمام على أرض فقيرة مقفرة لا حياة فيها، وكيف أجبرن قبلها على اتخاذ طريق الهرب خوفًا من ممارسات بشعة لا يتورع أصحابها في فعل أي شيء بلا إنسانية.

ويجب أيضًا أن ندرك أن المأساة السورية قد دخلت عامها الخامس، مخلفة وراءها ألف حكاية و ألف ألف قصة مفجعة لا تختلف في وجعها عن مآسي أبطال أطلالنا التي نقف عندها في هذا الكتاب، فهناك ضحايا آخرون لم نعرفهم، وهناك أكثر من مائتين وعشرة آلاف قتيل، وتم تشريد ما لا يقل عن ٢١ مليون شخص في الداخل والخارج، كما حرمت المأساة ما يزيد عن مليوني طفل من أبسط حقوقهم التعليمية والصحية، وذلك منذ اندلاع الأزمة في مارس ١١٠٢ وحتى فبراير ٥١٠٢.

لم يكن أي مراقب للمشهد السوري عندما اندلعت الاحتجاجات ضد نظام الرئيس بشار الأسد في عام ١١٠٢ أن يتخيل وقوع كارثة بمثل هذا الحجم من الفظاعة؛

فقد حصدت أرواح آلاف الأبرياء، ودمرت البنية التحتية وأغلب المدن والمباني التاريخية، بالإضافة إلى تدمير النسيج الاجتماعي والاقتصادي للبلد العربي العريق، بفعل النظام وأطراف عدة أخرى لم تتورع في أن تقوم بكافة أعمال العنف بما فيها ممارسات الإبادة الجماعية والاختطاف والتعذيب.

وأصبح البلد الشقيق مرتعًا للجماعات الإرهابية التي أتى أفرادها من شتى بقاع الأرض، وتحولت سوريا بمرور الوقت إلى حلبة صراع مصالح تتقاسمه دول وأجهزة مخابرات لا تولي أي اهتمام بقضايا البشر، وتداخلت ملامح الصورة في بعضها البعض، ولم يعد في الإمكان معرفة من يناضل من أجل الحق، ومن يصارع من أجل أجندات خاصة.

وبشيء من التفصيل، يمكن تقسيم قائمة المعارضة السورية المسلحة والجماعات المتطرفة المتواجدة على الأرض هناك إلى أربعة تصنيفات رئيسية، أولًا: تحالفات الثوار الرئيسية، وتضم الجيش السوري الحر، وجبهة تحرير سوريا الإسلامية، وجيش الإسلام، وثانيًا: المجموعات المستقلة وتضم: ألوية أحفاد الرسول، وجبهة الأصالة والتنمية، ولجنة دروع

الثـورة، وتجمـع أنصـار الإسـلام، ولـواء شهـداء اليرمـوك، وكتائـب الوحـدة الوطنيـة.

وثالثًـا: المجموعـات المتطرفـة الـتي تمـارس إرهابهـا وعنفهـا عـلى الجميـع بـلا اسـتثناء حـتى بينهـا البعـض، وهي: جبهـة النـصرة، وداعـش، وجيـش المهاجـرين والأنصـار، ورابعًـا: المجموعـات الكرديـة، ووحـدات الحمايـة الشـعبية.

وبنظـرة بسـيطة عـلى مفـردات تصنيـف هـذه الجماعـات سيتضح لنـا بجلاء حجـم الكارثـة التي تعـاني منهـا سـوريا بسـبب مجموعـات مقاتلة متعـددة متباينـة في الفكـر، لا تتفـق عـلى أي هـدف، أغلبهـا لا يحمـل هدفًـا وطنيًّـا سـوريًّا حقيقيًّـا؛ فهنـاك الأوامـر الـتي تأتي مـن قبـل المموليـن لتحقيـق غـايات مغـايرة تمامًـا عـن الاحتياجـات السـورية، وهنـاك أفعـال تـؤجج النـزاع، وتشـتت وتهـدر مسـاعي التوصـل لحـل ينهي الأزمـة الطاحنـة.

الأمـر الـذي أوجـد واقعًـا عـلى الأرض؛ فبعـد أن كان الجيش السـوري الحـر هـو الفاعـل الأسـاسي في مقاومـة النظـام وصـد هجماتـه عـلى المدنيـين والسـعي لإسـقاطه مـن خـلال تكتـل

للقوة العسكرية الوطنية، اخترق الصراع جماعات مسلحة متطرفة يتم تمويلها من الخارج، استقطب أغلب أعضائها من أفريقيا وآسيا، وبعضهم جاء من أوروبا وكندا بدعاوى كاذبة تدعي محاربة الكفر ونصرة الإسلام.

ومثل هذه المجموعات الإرهابية بالأساس جماعة « داعش « و» جبهة النصرة « ، ليتحول المشهد بعد فترة إلى ممارسات أكثر عنفًا ودموية بسبب الصراع الذي حدث بين الجماعتين الإرهابيتين الرئيسيتين الذي أراه بالأساس خلافًا بين مولين ليس أكثر.

وبعد هذه التحولات الجذرية على أرض الصراع، تراجع تأثير القوات المعارضة الوطنية المعتدلة لصالح قوى الإرهاب والشر التي لم تتورع في القيام بأعمال القتل والدمار والتعذيب، وهو الأمر الذي استغله النظام السوري لصالحه تمامًا، فبدلًا من أن يكون في حالة صراع سياسي مع قوى المعارضة الثائرة ضده، أصبح في مواجهة جماعات إرهابية ذاع صيتها بسبب جرائمها الفظيعة التي تتباهى بها عبر بثها على الإنترنت.

لنجد أنفسنا أمام تحول دراماتيكي دفع الكثير من الدول الكبرى، وبعض الدول العربية الأخرى ذات العلاقة إلى مراجعة موقفها إزاء الحالة السورية، التي تحولت إلى جبل تحطمت أمامه كل محاولات حل النزاع الدائر، لتفشل مبادرات المنظمات الدولية والإقليمية التي سعت إلى التوصل لحل سياسي ينهي أزمة البلد الجريح.

وزادت حدة الصراع، وتشابكت تدخلاته الخارجية التي دعمت كافة أطراف النزاع بالسلاح تارة وبالمال تارة أخرى؛ حيث ظهر بجلاء الدعم الإيراني الروسي للنظام الذي رفض تقديم أي تنازلات سياسية بدعوى أنه يحارب الإرهاب، وفي المقابل تحصل الجماعات المسلحة المتطرفة على دعم قوي من بعض الدول وأجهزة مخابراتها للحصول على مكاسب خاصة تبتغي تقسيم الدولة السورية.

ليجد الشعب السوري نفسه وقواه المعارضة الحقيقية المعتدلة بين فكي قوتي الشر، جبروت النظام من ناحية وممارسات الجماعات الإرهابية من ناحية أخرى؛ الأمر الذي زاد من تعقيد الأزمة وإطالة أمدها على كافة

الأصعـدة، ولم يعـد هنـاك أي أمـل عـلى المـدى القريـب لـنزع فتيـل الكارثـة الـتي تتفـاقم كل يـوم في حـرب مصـالح، وقودهـا النـاس الضعفـاء.

وتشـير كل وقائـع الأرض وملابسـاتها وأحداثهـا إلى دخـول سـوريا النفـق المظـلم، فبـات مسـتقبل البلـد الجـريح في مهـب رياح عاتيـة عنيفـة لا ترحم صغـيرًا ولا كبـيرًا ولا تعـرف حقًّـا ولا عـدلًا، وأصبـح أطفـاله ضحـايا بـلا معيـل، مـشردين ومشـتتين عـلى الحـدود في ظـروف غـير إنسـانية؛ فـلا يسـتطيعون الحصول عـلى الغـذاء أو الخدمـات الصحيـة أو التعليميـة بسهـولة، وإنمـا بصعوبـة بالغـة للغايـة تهـدد وجـودهم في الأسـاس.

ولم تصـل مأسـاة أطفـال سـوريا عنـد هـذا الحـد فقـط؛ فبسـبب إخفـاق المجتمـع الـدولي في حمايتهـم أصبحـوا ضحـايا مباشرين لأعمـال العنـف الـتي يشهدهـا هـذا البلـد منـذ انـدلاع الأزمـة.

وأفـادت تقـارير ومشـاهدات صحفيـة عـدة إلى أن الأطـراف المتنازعـة هنـاك يرتكبـون جـرائم حـرب ضـد الأطفـال الـذين

بات وضعهم يثير الصدمة؛ حيث يتم معاملتهم بطريقة غير إنسانية؛ فقد تم قتل أطفال وفتيان عشوائيًا، احتجزوا بلا مبرر أخلاقي أو قانوني، واعتدي عليهم جنسيًا، واستُخدموا في معارك، وخُطفوا وعُذبوا وحُرموا الذهاب إلى المدرسة أو الحصول على المساعدة الإنسانية، إضافة إلى تعرضهم في شكل متعمد لهجمات عنيفة.

ووجد الأطفال نفسهم في مواجهة ممارسات الاحتجاز التعذيب والاعتداء ، بالإضافة إلى قيام بعض الجماعات المسلحة بضم أطفال إليها في صفوفها، وهي الجماعات نفسها التي أخفقت في حماية الأطفال بشكل ملائم حين كانت تنفذ أعمالًا حربية داخل المناطق المأهولة بالسكان المدنيين.

وعملت الجماعات المسلحة على إعادة إنتاج ما كان يجري في أفغانستان تمامًا، فقد افتتحت مدارس لاستيعاب الأطفال والفتيان وتدريبهم على السلاح والمتفجرات، وألغت البرامج التعليمية الرسمية، وجعلت تدريس الدين والعبادات أمرًا ملزمًا، علاوة على دروس تثقيفية تعبوية

تحث هؤلاء الأطفال والفتيان على القتال والجهاد، وتزين لهم الموت الذي سينقلهم إلى الجنة.

وقامت جماعتا « داعش » و «جبهة النصرة » المتطرفتان بإنشاء مدارس في المناطق التي سيطرت عليها والتي انحسرت عنها سلطة الدولة المركزية، وهي في معظمها مناطق ريفية رعوية، لتخريج أطفال مدربين على القتال واستعمال السلاح، أصبح في سوريا اليوم ما لا يقل عن عشرة معسكرات لتدريب الأطفال.

ولا يخفى على أحد له دراية بسيطة بعلم النفس إدراك أن ما يتعرض له الأطفال في الحروب والنزاعات المسلحة من الاعتداء على حقوقهم وكرامتهم الإنسانية، ومشاهدتهم لأعمال العنف والقتل يشكل بالضرورة صدمة جسيمة للأطفال، وهذا ما يُطلق عليه صدمة الحروب، التي تحمل آثارًا سلبية خطيرة يتعرض لها الطفل، وتشمل مظاهر كثيرة، منها: الخوف والفزع، والشعور بعدم الأمان، واضطرابات النوم التي تصاحبه لفترات طويلة.

وتـؤدي هـذه الصدمـة بالطفـل إلى الرجـوع إلى مراحـل طفوليـة سـابقة، وحمـله لمشـاعر الغضـب والكراهيـة والحقـد والانعـزال والاكتئـاب الشـديد؛ الأمـر الـذي يخلـق إنسـانًا مدمـرًا ومحطمًـا اجتماعيًـا، يعيـش في إطـار مـن العقـد النفسـية الـتي قـد تسـتمر تلاحقـه لعـشرات السـنين؛ وبالتـالي تنتقـل بدورهـا إلى أجيـال أخـرى، لنجـد أنفسـنا في النهايـة أمـام مجتمـع مضطـرب نفسـيًا وسـلوكيًا.

إذن يجـب أن نـدرك جميعًـا أن هنـاك مخاطـر جمـة وخطـيرة يواجههـا المجتمـع السـوري ككل في حـاضره ومسـتقبله، ومـن خـلال بروز هـذه الشريحـة المضطربـة نفسـيًا وجسـديًا وسـلوكيًا، ولم يعـد سهـلًا إزالة هـذه الآثار السـلبية ، وقـد يكـون في أحيـان كثيرة غير ممكـن؛ لأن هنـاك عـشرات الآلاف مـن الأطفـال والفتيـان الـذين تعرضـوا لهـذه المظاهـر المؤذيـة مـن القتـل والقصـف؛ الأمـر الـذي يحتـاج علاجًـا وتأهيـلًا نفسـيًا واجتماعيًـا ومعرفيًـا لـكل طفـل تعـرض لمثـل هـذه المواقـف؛ وبالتـالي يمكـن القـول إن هنـاك تخريبًـا كامـلًا وخطـيرًا قـد حـدث لجيـل بأكمـله.

وبالضرورة وبعد كل هذا .. يجب أن أعترف وتعترف معي أنت أيها القارئ الكريم أن إنسانيتنا التي تطورت على مر التاريخ، وبلغت غايات عالية من رفاهية العيش لم تفلح في خلق أو تأسيس كيان عالمي من السلم والأمن في أبسط صوره.

فقد فشلت حضارتنا الإنسانية المزعومة بامتياز، وطغى على المشهد الإنساني كله الحروب والنزاعات وممارسات القتل والترويع والإرهاب على نحو أكثر درامية ومأساوية، أعمال لا توصف إلا بكونها عارًا لا يعرف الفحش والكره.

وإذا طالعنا مشهدنا الإنساني سندرك بوضوح أننا نحن البشر أصبحنا أسرى الغرائز والتوحش والعصبيات والأيدلوجيات والمعتقدات العقيمة والمصالح الضيقة دون وجه حق؛ الأمر الذي يجعلنا نتساءل ونطرح الإشكالية الكبرى .. كيف نستمر في حياة ونحن غارقون في كراهية سوانا؟! كيف ونحن البشر المكلفين بالحياة والحب أن تتجاذبنا مشاعر الحقد والبغضاء والكراهية؟! وكيف نستمر في البقاء ونحن غارقون في أتون كره الآخر تحت عباءة الدين

والقوميـة والطائفيـة؟!.. تاركـين ومتناسـين هويتنـا الإنسـانية الأعم والأشمـل الـتي تدعـونا إلى الحـب والتعايـش وأن نـضيء حياتنـا بالجمـال.

ليبـقى الطـرح الأهم في زمـن الكـره والبغـض.. كيـف نواجـه أوليـاء الكراهيـة والحقـد؟!.. وكيـف نتمسـك بإنسـانيتنا المحبـة في فطرتهـا للسـلام والخـير والجمـال؟!.. لكـن يبـقى أيضـا وأيضـا الأهم بالنسـبة لي أنا ... أني أحـب وطـني وأهـلي وأعشـق أحبـائي وأهـيم عشـقا بأصدقـائي الكـثر .. فهـولاء لا أسـتطيع العيـش بدونهـم فهـم أكسـير الحيـاة بالنسـبة لي. فأنصتـوا أحبـتي مـعي لصـوت الحـب عـبر أثـير أم كلثـوم وفـيروز ووقـع كلمـات شـوقي وأبراهـيم ناجي وجـبران والمـازني ودرويـش ربمـا نتطهـر مـن قبـح حامـلي الـرايات السـوداء .. من يوميات < >غربتي البعيدة< > ... وأخيرا مساء العثل

وقبـل أن أنهي خاتمـتي، أود بقـدر اسـتطاعتي كمراقـب للأحـداث، وكصحـفي شـاهد بأم عينيـه عـلى أرض الواقـع مـآسي ومواجـع ضحـايا أنهكهـم الـصراع السـوري القاتـل أن أجـد طرحًـا يجيـب عـلى السـؤال: « ومـاذا بعـد .. ؟! »،

في ظـل رؤيـتي ورؤيـة غـيري كثـير أننـا نعيـش أزمـة إنسـانية طاحنـة تواجـه تحـديات كـبرى أهم ملامحها هذا التطـور الهمجي الطـاغي واللافـت أيضًـا الـذي يقـود البشريـة نحـو الهاويـة.

«ومـاذا بعـد .. ؟!» .. هـذا هـو السؤال الأجـدى بالطـرح والتمعـن، والـذي يرافقـه تسـاؤلات عـدة لا تقـل أهميـة، هـل نحـن في حاجـة إلى تعديـل سـلوكنا الإنسـاني برمتـه؟! وهـل نحن في حاجـة إلى تعـلم مهـارات قبـول الآخـر؟! هـل نحـن في حاجـة إلى خلـق حيـاة وواقـع مشـترك يتقبـل إنسـانيتنا سـويًّا حـتى وإن اختلفنـا في اللـون أو الشـكل أو الـدين أو الفكـر؟!

وإذا كنـا بصـدد الإجابـة عـلى السؤال « ومـاذا بعـد .. ؟! » يجـب أن نعـترف أن الجنـس البشري، خاصـة المقـيم عـلى امتـداد وطننـا العـربي قـد أخطـأ خطـأ فادحًـا بسـبب انكبابـه وسـعيه المحمـوم نحـو الرفاهيـة والتطـور المـادي؛ الأمـر الـذي جعلنـا أسرى وعبيـدًا للمنافـع الماديـة الوهميـة الـتي تبـدو لنـا زيفًـا أنهـا السـعادة المبتغـاة.

والآن يظهر واقعنا المؤسف شاخصًا وواقعًا لا شك فيه، تظهر تجلياته المحزنة في الأنانية الفردية أو الجماعية المغلقة، والتمحور حول ثقافة ومعتقد أحادي الفكر تمزق أسمى أهداف الإنسانية التي خلقنا الله تعالى من أجلها، وهي عمارة الأرض والتعايش السلمي الذي يؤمن بقيمة الحياة.

.. « وماذا بعد .. ؟! « سؤال يضعنا أمام مرآة حقيقية، هي أننا رغم الحداثة والتنوير وتطور وسائل الاتصال المختلفة، نعيش في جزر منعزلة لا تعرف، ولا تؤمن بأهم معاني الإنسانية وهي الحب والعطف والشفقة والرحمة والسلام.

ويجعلنا السؤال الهام أيضًا أننا في حاجة ماسة وضرورية إلى فهم حقيقي لمفهوم الإنسانية الذي لم ندرك حقيقته السمحة المحبة للسلام، وأن نؤمن حقًّا ونضع الحقيقة أمام أعيننا بجلاء أن الله سبحانه وتعالى قد خلقنا إخوة من أب واحد وأم واحدة مهما تعاظمت الاختلافات والعقائد والأفكار.

ويلح « وماذا بعد .. ؟!» الضرورة الهامة التي تتطلب تكاتفًا إنسانيًا ومجتمعيًّا يدرك أننا في حاجة لعدة إصلاحات ضرورية تسير في مسارات متعددة، تمزج التحسينات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية والسياسية في مسار واحد هو « الحياة «.

وأخيرًا .. ينبئني بكل أسف وحزن سؤال « وماذا بعد .. ؟! « أن حضارتنا الإنسانية المزعومة والناقصة مجرد مظاهر ومكاسب مادية لا عمق ولا حكمة ولا محبة فيها، فتعسًا وسحقًا أيها العالم القميء .. وعفوًا أيتها الحرية وأيها السلام المفقود، عفوًا إنسانيتنا الضائعة..

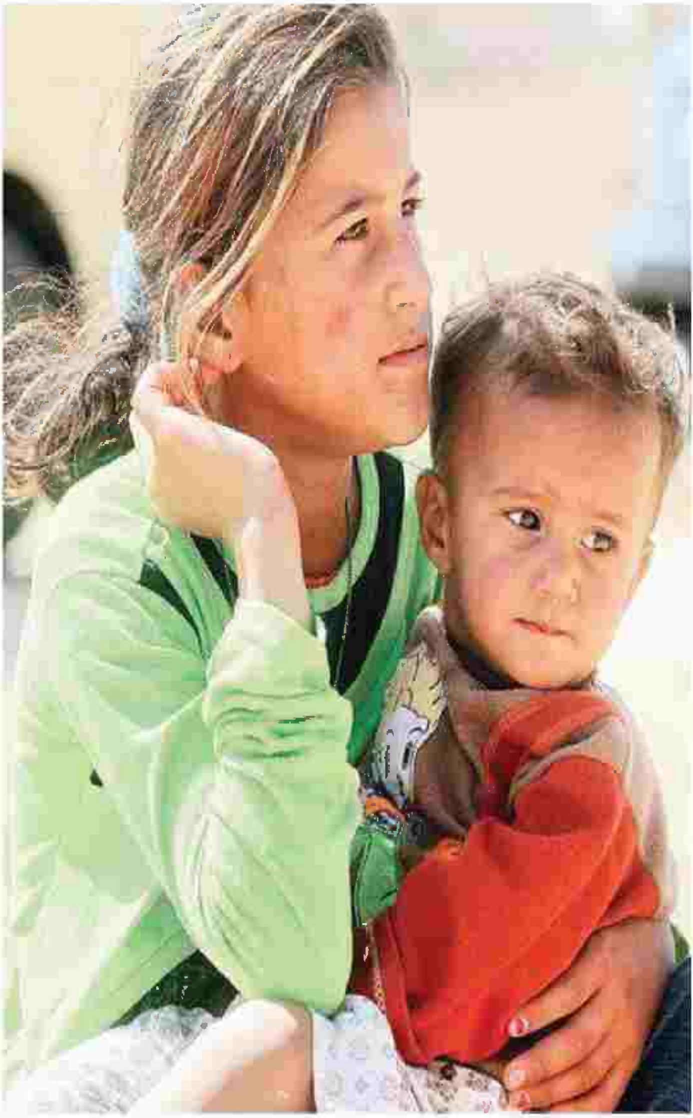

700m

المستشفى الاماراتي الاردني الميداني
علاج-جراحة-تدريب-وقاية

علاء البدري.. محطات

يعمل صحفيًّا بمؤسسة أخبار اليوم المصرية، وحاليًا في رحلة عمل بدولة الإمارات العربية؛ حيث عمل لمدة خمس سنوات بجريدة «الخليج» الإماراتية، وحاليًا يعمل صحفيًّا بوزارة العمل الإماراتية.

ولد في الثاني من شهر نوفمبرعام ١٧٩١ في محافظة الإسكندرية التي تربى ونشأ فيها لأسرة صعيدية تنتمي لمحافظة الأقصر بجنوب مصر، ودرس القانون بجامعة الإسكندرية.

بدأ حياته الصحفية عام ٤٩٩١ مراسلًا صحفيًا لعدد من الصحف والمجلات المصرية والعربية، وتخصص في كتابة التحقيقات الصحفية، شارك خلال عام ٨٩٩١ في تأسيس جريدة أخبار الجمهورية التي تراس مجلس تحريرها، وتم إصدارها من الإسكندرية، ووجهت أغلب موادها وملفاتها الصحفية لمحافظات صعيد مصر.

اهتم خلال رحلته الصحفية بالبحث والدراسة في إشكاليات الإعلام والتحديات المتعلقة بدوره وتأثيره في التنمية المجتمعية، وفي ذات الشأن، حصل على العديد من الدورات التدريبية المتخصصة في الإعلام والإدارة.

كتب عددًا كبيرًا من التحقيقات الصحفية، وتناول فيها مجموعة من القضايا المحلية والإقليمية، خاصة ملفات الصراعات والنزاعات؛ حيث قام برصد معاناة الضحايا في هذه المناطق الساخنة في عدد من التحقيقات والتقارير الصحفية، وأجرى مجموعة من الحوارات الصحفية مع كبار رجال الدولة والساسة في مصر والوطن العربي.

مثلت القراءة في حياته ومنذ سنوات عمره الأولى دورًا هامًّا وكبيرًا؛ فقد ولع بقراءة الروايات والشعر، وشغف كثيرًا بقراءة الفلسفة وعلم النفس والتاريخ، وتمعن في دراسة ظاهرة الإسلام السياسي في مصر والوطن العربي.

حصل على جائزة وزارة الشباب والرياضة في كتابة المسرح في مسابقة لشباب الجامعات عام ٧٩٩١،عن الدراما المسرحية « تعسًا أيها العالم عفوًا أيتها الحرية «، وله نصوص أخرى، مثل المسرحية الاستعراضية « مليونير ولا .. ؟ « ، والنص الكوميدي « قف هل أنت ديمقراطي « ، ونشرت له مجموعة من القصص القصيرة في عدد من الصحف والمجلات العربية.

تحت الطبع:

- «مشاعر».. الحب وقبول الآخر وتحدياتهما النفسية والاجتماعية.
- «٣ نبوءات» رواية.
- « أفكار نيرة» كتاب إرشادي موجه للشباب.

الفهرس

فاتحة القول	٥
الـرحـلـة	٧
وكانت البداية	٢١
فاطمــة	٢٥
أبو عبيدة	٣٣
دارين	٤١
عم جـــاسم	٥٣
ســـارة	٦٣
علي والصغار	٧٧
ناقل الموتى	٨٥
هـــــروب	٩٣
ثلاث فتيات	٩٩
وماذا بعد ... ؟!	١٠٧
علاء البدري.. محطات	١٤٣
تحت الطبع:	١٤٦

رقم إيداع ١٣٥٠٦ / ٢٠١٥ط١

الترقيم الدولى / ٣- ٠١٦ - ٧٨٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨

ليليث للنشر
والتوزيع